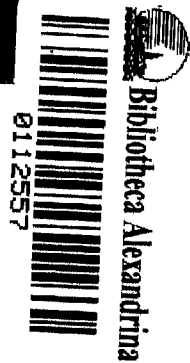
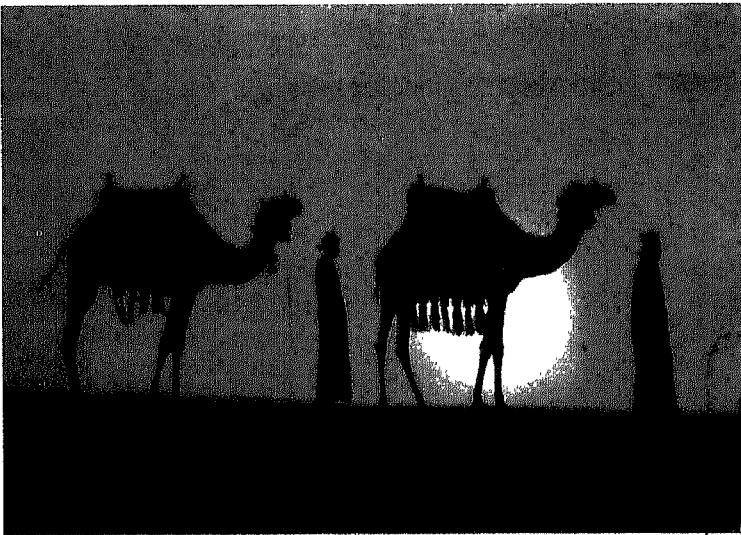


أحمد الأحمدين

الوقوف على الأئمة عند عرب الجاهلية



**الوقوف على الأمية
عند عرب الجاهلية**

أحمد الأحمد

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٦٢٧

الترقيم الدولي : 4-126-291-977-I.S.B.N.



- مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسمى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

علي عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكتروني

مركز الحضارة العربية

ش.س. العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية

أحمد الأحمدين



مقدمة

دعاني إلى كتابة هذا الموضوع كثرة ما يتردد عن تعميم عرب ما قبل الإسلام بأمية القراءة والكتابة ، وجعل القارئ الكاتب بينهم أمراً يصعب على المتتبع إيجاده ، ودعاة هذا يسوغون نهجهم مُعَوَّلًا على حديث للرسول - عليه الصلاة والسلام - : (نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) . دون شرح له طبعاً ، أو حتى المناسبة التي قيل فيها لأنهم لو ذكروا هذا تبين للقارئ أو السامع غير ما يريدون ؛ إذ إن الرسول لم يقصد جهل أمتة بالقراءة والكتابة وضروب الحساب ، اللهم إلا أنهم يسقطون ذلك الضرب الذي بسببه قيل الحديث ، كذلك تراهم يعولون ويكثرون من الاستشهاد بالآية الثانية من سورة الجمعة : (هو الذي بعث في الأميين رسولا) . وهم في هذا وذاك يعولون على ظاهر اللفظ ومنطوقه ليس غير ، وهذا اللفظ ورد في القرآن في أكثر من آية لكنه ما قصد بأى موضع منها أنه يعنى أمة القراءة والكتابة ؛ بل العكس فإن القرآن خاطب العرب لا سيما الحجازيين وأهل الكتاب في غير الحجازيين بأنهم فارتون كاتبون عالمون^(١) بالكتب والرسل والأنبياء ، والأمم السابقة ، والمعاصرة لهم .

وأيضاً يدل على هذا ما ورد في الأدب الجاهلي وما حواه من ذكر القراءة والكتابة وأدواتها ، بل إنه عرفنا أنه كان للمكتوب عندهم مسميات عديدة اصططلحت حسب أغراضه .

ووجدتني مشدوداً إلى تناول الموضوع بالبحث والتحقيق لأنه في يقيني ويقين الكثيرين غيري أن أسلافنا لم يكونوا على هذا النحو الذي يصوره أولئك ، وعنيته فعلاً ومكثت فيه حيناً من الدهر بين البحث والتحقيق والتأليف حتى أتيت بما بين أيديكم وبما أرجو أن يجد فيه القارئ نفعاً ويكون زبالة في طريقنا الذي يعنى أولئك أن يعتموه علينا .

أحمد الأحمد
ديسمبر ١٩٩٧م

شركة

(١) سابين ما المقصود بأمية العرب التي وردت في القرآن ، وسبب قول الحديث الذي ورد عن الرسول والمناسبة التي قيل فيها ، وذلك في حينه .

المملكتان العظيمتان

رأيت قبل أن أبدأ موضوعي عن الأثر التعليمي في العرب لمملكتي (الحيرة) و(غسان) أنه ينبغي على البدء بمملكتين أبعد عهداً وأعظم أثراً منهما حتى أكون أتيت الأمر من فسه كما يقول (طرفة بن العبد) أو غيره ، أى من أصله .

المملكة الأولى

هى جزء من شبه الجزيرة العربية لم يتغير اسمها القديم إنما الذى تغير هو نظامها من ملكى إلى جمهورى ، وكانت فى الحين الذى نعينه ذات يسار وخصب وقوة - ونرجو أن تعود - وكانت كتاباتها منتشرة بأماكن كثيرة من المعمورة ، فى آسيا وإفريقيا ، بل وفى بعض الجزر الأوروبية . وجاءت صورتها فى القرآن على هذا النحو (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية .. جنتان عن يمين وشمال) .. (قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد) . أحسب أنه تأكد عندك أن أعنى (اليمن السعيد) ، واليمن رغم حضارته تلك ورغم انتشار كتابته تحول العرب عن هذه الكتابة إلى أخرى ، بل إن اليمن نفسه تحول إلى الكتابة الأخرى لتكون كتابة العرب جميعاً قبل الإسلام بقرون . وعُرفت حضارة اليمن منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حتى إن أظله القرن السابع ق . م كانت هذه الحضارة بلغت أوجها ، وقد استطاع علماء الساميات فى منتصف القرن الماضى أن يقفوا على هذه الحضارة من خلال اجتهادهم فى ترجمة وفك رموز نقوشهم الكثيرة والتي بلغت آلافاً فى مواضع مختلفة ، وعرفوا وعرفنا من خلالهم أنه كان لليمن خمس ممالك متعاقبة (معين) (سبأ) (قنبان) (الأوسانية) (حضر موت) ، وعرفنا حكوماته وقوانينه ، وتشبيدهم للسدود والهياكل والقصور ، وإلمامهم بعلوم وصناعات كثيرة علاوة على تفوقهم فى هندسة الرى والزراعة ، وكانوا أرباب تجارة واسعة تجتاز البر والبحر .

ففى البر كانت قوافلهم تخرج من ديارهم حتى الديار الشامية والمصرية حاملة ما تنتجه بلادهم وما يجلبوه من الهند وإفريقيا إلى هذه البلاد ، ومن ثم كانت الجسر بين الشرق والغرب ، وكان ذلك يحتم عليهم إقامة الحاميات القوية فى جميع ممرات قوافلهم لحمايتها ، فأقاموا مراكز لها فى

النقاط الهامة مثل منطقة شمالي الحجاز ودون مدينة دمشق التي كان يبعث نواحيها كهوف يسع الواحد منها أربعة آلاف من اللصوص^(١) مثل منطقة (اللجاء) المعروفة (بالوعرة) . وقد وجدت نقوشهم في هذه المناطق (الحجر) و(دادان) شمالي الحجاز ، ودون دمشق .. وقيل إن هذه الحمايات ظلت بهذه المناطق وغلب عليها الطابع الشمالي بعد أن نقلوا حضارتهم إلى إخوانهم في الشمال إبان حكم مملكتي (معين) و(سبأ) أي منذ عشرة قرون قبل الميلاد ، أو دون ذلك بقرنين . ووجدت كتابتهم بمصر وكان لهم جالية كبيرة وذات شأن رفيع بها، وكانت على صلة بالكهنة والحكومات ..

أما سبيل البحر فكان لهم أسطول كبير يجوب البحار ، وقد وجدت كتابتهم في الجزر اليونانية (جزيرة ديلوس)^(٢) ، وكان لهم جالية كبيرة بها تستقبل ما تحمله السفن لتنقله داخل البلاد ، كذلك وجدت نقوشهم في إفريقيا بمملكة (أكسيوم) و(نيجار) ، وكانت لهم جاليات بإفريقيا لغرض التجارة أيضاً .. ولا بد أن يكون هذا الأسطول بلغ البلاد الهندية ما داموا كانوا على علاقة تجارية معها ، بيد أنني لم أقرأ هذا فيما قرأت .. أما تداعى هذه المملكة وبوادئ انهارها فبدأت منذ حوالي عام ٢٧٠ ق.م عندما أنشأ بطليموس الثاني أسطولاً بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر والبلاد الشامية تجارة الهند وشرق إفريقيا ؛ فاضطربت حركة التجارة اليمنية شيئاً فشيئاً حتى توقفت وهنالك أخذت أحوال اليمن تسوء ، وكان هناك عامل أقوى وأبعد أثراً من هذا وهو منازعة ملوك ريدان للسبئيين ، ثم انتزاع الملك من أيديهم في عام ٢١٥ ق.م ، وهؤلاء الريدانيون هم الحميريون أصحاب آخر مملكة لليمن القديم . وتمضى العقود لتظهر أن الرومان ما غاب عن خاطرهم مفاتيح التجارة التي بأيدي اليمنيين وأنهم يعدون العدة لتجريدتهم منها ففي عام ٢٢ ق.م جهز إليوس جالوس والي مصر الروماني حملة كبيرة لغزو اليمن ، لكن هذه الحملة فشلت وما كان لهم أن يعودوا بهذا الفشل الذريع ؛ فجمعوا قواتهم وسفنهم واتجهوا إلى ميناء عدن واحتلوها وجعلوا بها قاعدة لتموين سفنهم فقصوا على التجارة اليمنية تماماً ، وازدادت أحوال اليمنيين سوءاً وأهملت شئون البلاد العمرانية وجعل الخراب يدب في مرافقها الحيوية ، وفي القرن الرابع الميلادي يظهر لهم عدو آخر لا يفصله عنهم إلا مضيق في البحر الأحمر وهم الأحباش حلفاء الرومان وقتئذ الذين خرجوا إليهم في حملة عظيمة واستطاعوا أن يحتلوا البلاد ويبقوا بها عشرين عاماً ، ثم يجلبون عنها ليعود اليمن مستقلاً لكنه ضعيف ، ويقال إن ذلك شجع القبائل الشمالية بالإغارة عليه أو على الأجزاء التي دونها وفرض لغتها ، ثم إن الخراب الذي حل به جعل كثيراً من

(١) فليب حتى في مؤلفه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) .

(٢) الأستاذ جواد على في مؤلفه (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

قبائله تهاجر إلى الشمال .. وفى عام ٥٢٠م عاد الأحباش لغزوه بإيعاز من الرومان بعدما نكل ذو نواس بأهل إقليمي لبحران المسيحى ، فاتجهت إليه الحملة تحت قيادة أبرهة واحتلوه وغدا أبرهة وبنوه حكامه مدة خمسين عاماً ثار فيها اليمينيون ثورات عديدة لكن دون جدوى ، ثم استعانوا بالفرس عن وساطة مملكة الحيرة فأعانوهم واستطاعوا أن يطردوا الأحباش ، لكن الفرس بقوا بالبلاد حتى مجيء الإسلام إليها فى عام ٦٢٨م ودخل بازان عامل الفرس عليه فى الإسلام .

تلكم إشارة سريعة إلى ما كان عليه اليمن قديماً ، لكنها ما كانت تمر بنا دون أن تسترعى اهتمامنا بأنها حضارة عربية خالصة ، وأنها لم تك ببعيدة عن الإخوان فى الشمال وأن الاتصال الحضارى قديم بينهم أرجعه بعض علماء الساميات إلى ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد ، وذكره بعضهم دون ذلك ، وهذه الحضارة تناقلتها كل الدول العربية التى حلت بشمالى الحجاز والحجاز نفسه من ثموديين وصفويين ولحيانيين إلى الخزاعيين عبر العمالق والجراهمة ، ثم ثبت وهو أهم ما يعنينا هنا أن جميع من ذكرتهم من سكان المنطقتين استفادوا من خط إخوانهم الجنوبيين وكتبوا به فى هذه الحقب القديمة وظلوا كذلك حتى بعد قيام المملكة النبطية وحتى بعد قيام الاتحاد النبطى الذى كان شمالى الحجاز عضو فيه .

ومن ثم نرى الظروف حولتهم من حضارة إلى حضارة وكلتا الحضارتين عربيتان وكلتاها ما أفادتهم ، وكانت الحضارة الثانية أعظم فائدة للعرب جميعاً لكونها صاحبة الخط الذى نكتب به كما ذكرت .

المملكة الثانية

بدا لنا من خلال الحديث عن الكتابة أنها مملكة الأنباط ، والحديث عن الأنباط لا يفوت أى متناول لموضوع الكتابة والخط العربى سواء رضى أم لم يرض لا سيما فى عصرنا هذا الذى فُكت فيه الرموز والنقوش وترجمت الكتابات القديمة ..

يقال إن أول ظهور للأنباط كان فى القرن السادس قبل الميلاد وأول تاريخ ثابت عنهم هو عام ٣١٢ ق.م وكانت مملكتهم تقع جنوب الأردن وعاصمتها (بتراء) وبتراء لفظ يونانى لكلمة (صخرة) ، إذ كانت هذه العاصمة محفورة فى قلب صخر رملى يظهر جميع ألوان (قوس قزح) فكانت تشكل مزيجاً فريداً من الفن والطبيعة ، وكان يطلق عليها المدينة الوردية ، والمدينة الحمراء ، والحمراء الوردية . كلها كانت تطلق على العاصمة الجميلة . وكانت هذه المملكة عربية اللهجة

لكون ملوكها وسكانها عرباً شماليين ، وكانت وثنية الدين كأغلب سكان الأرض حينئذ ، أما كتابتها فكانت آرامية إلى حين ، وكانت يونانية رومانية الهندسة والفن والثقافة عموماً ، وتنتشر في شوارعها الواسعة الأعمدة الرخامية وفي أحيائها المسارح والملاعب .. وكان عام ١٦٩ ق.م فاتحة سلسلة ملوكها الذين عرفت أخبارهم وذاعت سيرتهم وهي الحقبة التي عنوا فيها أن يكون لهم خطهم وأن يستقلوا عن الخط الآرامي ، وجدوا في الأمر حتى استطاعوا بعد حقب أن يحققوا الحلم ويولد الخط النبطي العربي من الرحم الآرامي ، وفي هذه الحقبة العظيمة ؛ نشأ (الاتحاد النبطي) الذي ضم جنوب فلسطين وجنوب شرق سوريا وشمالي الحجاز مع المملكة النبطية . وفي هذه الحقبة أيضاً أخذت تظهر صورة الملك والمملكة على النقود النبطية ، كذلك أخذت تظهر التماثيل النصفية لهما ، وذلك منذ عهد الملك عبيدة الثالث الذي دام حكمه تسعة عشر عاماً سنة ٢٨ ق.م حتى سنة ٩ ق.م وظلت صور الملوك وزوجاتهم على النقود وظل تخليدهم بالنحت إلى نهاية المملكة .

وفي عهد الملك الحارث الرابع الذي دام حكمه تسعة وأربعين عاماً من سنة ٩ ق.م : حتى سنة ٤٠ م ؛ بلغت المملكة أوج عزها وقوتها ، وتابع الحارث نشر الحضارة الرومانية اليونانية في المملكة فزادت حاضرتها فناً وجمالاً مع فن وجمال الطبيعة ، إلا أن الكتابة الآرامية هي التي كانت لا تزال تظهر على المسارح والقصور والدور ، والملاعب والشوارع وعلى النصب التذكارية وعلى النقود وفي دواوينهم . وهذا أمر طبيعي فإن الانتقال من لغة إلى أخرى ومن كتابة إلى أخرى يحتاج لزمان متسع لدى الدول .

ويبدو أن عهد الحارث هذا شهد أحداثاً هامة وكبيرة ، منها بوادر التبشير بالمسيحية ، إذ ذكر أن الوالي الذي حاول القبض على (بولس الرسول) بدمشق كان أحد ولاته ، ثم كان هناك حدث كبير في تاريخ البشرية أو في تاريخ المسيحية وشاءت الظروف أن يحتك به الحارث ، وهذا الحادث هو مقتل (يوحنا المعمدان) فقد كان هيردوس الحاكم اليهودي ابن هيردوس الكبير زوجاً لابنة الحارث ثم طلقها وتزوج سالومي^(١) الراقصة التي تسببت في مقتل (يوحنا) ، وهنالك شن الحارث حرباً مظفرة على هيردوس ، لكنها كانت باسم كرامته وكرامة ابنته ، وهكذا شاءت الأقدار أن يلقي هيردوس عقابه على يد هذا الملك العربي .

وقد أكد القدماء مثل (يوسيفوس) و(ديودورس) وغيرهما أن المملكة النبطية عربية حكومة

(١) فليب حتى - مصدر سابق .

وشعباً وهم يتحدثون العربية الشمالية ، وجاء علماء الساميات ليجعلوا هذا يقيناً لا شك فيه من خلال قراءاتهم لكتابات الأنباط وقد لمسوا في هذه الكتابات مراحل تطور الخط النبطي من الكتابة الآرامية المحرفة إلى محاولات الاستقلال عنها إلى الانفصال بالخط النبطي ومراحل تطوره ..

وفي عام ١٠٦م يقضى الرومان على الاتحاد النبطي وعلى (بتراء) ويضم هذه الأجزاء إلى ولاياتهم وتنتهى هذه المملكة العربية، لكن لم ينته أثرها ولن ينتهى ما دامت الكتابة العربية موجودة.

رأينا التاريخ الثابت لمملكة النبط هو بداية العقد الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد وهو تاريخ جاء بعد الاضطراب الذى أخذ يلحق باليمن العظيم كما بدا لنا ، وتمضى العقود فترى اليمن يصاب بمزيد من النكبات تضطره لأن يهمل شئونه الاقتصادية وغيرها ، وكان عامل التجارة الداخلية والخارجية عاملاً أساسياً ومهماً فى اقتصاده ، وعلى الجانب الآخر كانت مملكة النبط تقوى وتزدهر حتى بدت تنهض لهذا الأمر وغيره وتلقفت من الإخوان هذا العامل المهم وهو نقل التجارة من الديار اليمنية إلى الديار الشامية والمصرية ، فزادهم هذا قوة على قوتهم وازدهاراً على ازدهارهم وظل بأيديهم الأمر حتى قوضت المملكة .

ورأيناهم لم يهتموا بالعامل الاقتصادى وحسب ؛ إنما اهتموا أيضاً بالتعليم والتثقيف إلا أن العمل بهما كان يونانياً .

ونحسبهم عقدوا النية على أن يكون عربياً ؛ ففكروا وتدبروا فأروا أنهم لا يستطيعون تحقيقه إلا إذا كان لهم خط مستقل بهم يكتبون به لغتهم ومن ثمّ تعليمهم وكل أمورهم ، وأعطوا للأمر عظيم اهتمام ؛ حتى استطاعوا أن يشتقوا هذا الخط من الأصل الآرامى كما مرّ بنا ، ثم كانت بداية الانفصال عنه فى حوالى منتصف القرن السابق للميلاد .

وتبدو لنا فترة ما بين انفصال الخط وسقوط المملكة حوالى مائة وخمسين سنة نحسبها فترة كافية لأن يطور هذا الخط وينمى ، ثم تبدو لنا أنها فترة كافية لأن ينتشر أو يُعرف بين أعضاء الاتحاد ، أو على الأقل بين الإخوان فى شمالى الحجاز . ومن هنا يكون سكان هذه المنطقة عرفوا هذا الخط فى أوائل القرن الميلادى ، أى بعد خمسين سنة من انفصاله عن الآرامى . بل إن اليقين أثبت أن اليمنيين عرفوه فى هذه الحقبة من خلال النقوش التى عثر عليها البحث العلمى الحديث فى ديارهم ، ونحسبها من أثر القوافل التجارية .

وإذا كان اليمنيون عرفوه فى هذه الحقبة فأولى أن يعرفه من هم دونهم ومن هم عايشوهم وكانوا أعضاء فى اتحادهم وهم شماليون مثلهم كالثموديين واللحيانيين ، والمعروف أن الثموديين

نزلوا الطائف ، واللحيانيين نزلوا دون قبيلة هذيل ، ثم اندمجوا معهم دون أن يفقدوا هويتهم ، وظلوا يعرفون ببني لحيان حتى مجيء الإسلام ، وكلاهما كان قريب المنزل والمنزلة من مكة ، ثم لما تقوضت هذه الدولة الواسعة وزال سلطان بتراء تفرق الأنباط أنفسهم بين إخوانهم بالجزيرة العربية ، وقد تكون فرقتهم سابقة لجوء إخوانهم من الثموديين واللحيانيين داخل منطقة الحجاز ، فإنه لم يُحدد على وجه الدقة الزمان الذى فروا فيه عن وطنهما (الحجر)^(١) و(دادان) . بل إن من الكتاب المعاصرين من رجحوا^(٢) أن يكون أصل القرشيين يرجع إلى النبط ، كذلك لجأ الأنباط إلى العراق ونزلوا فى جهات البطائح من أسفل الفرات ، ومنهم من ظلوا بالأردن وطنهم .

ومن هنا نرى عاملاً لا يُنكر فى انتشار هذا الخط فى الجهات العربية ودون الفرات ، وبقيائه كذلك بمنطقة الشام ، لكن نحسب أن الخط المسند الجنوبي هو الذى كان لا يزال سائداً فى المنطقة العربية حتى نهاية القرن الثانى الميلادى وقد وجدت منه نقوش للثموديين بالطائف ، ونحن نعلم أن الثموديين واللحيانيين والصفويين سكان شمالى الحجاز ، والعرب جميعاً كانوا يستعملون الخط الجنوبي^(٣) منذ قرون بعيدة قبل الميلاد على نحو ما ذكرت ، إنما يبدو أيضاً أنهم جميعاً عقدوا النية على أن يتخذوا الخط النبطى بديلاً عنه منذ شاع فيهم لما رأوه أسهل وألين من المسند الصعب ، وما وجدوا فى هذا غضاضة إذ إنه قادم عن إخوة لهم كما كان المسند صادر عن إخوة لهم . أما سبب بقاء المسند حتى هذا الحين فهو من دواعى مراحل الانتقال كما كان الشأن عند الأنباط حين أرادوا أن يتحولوا عن الآرامى إلى النبطى وما يجعل هذا يقيناً تلك النقوش الأربعة التى عثر عليها علماء الساميات والتى تبدى مراحل التطور ، فإن أقدمها وهو نقش قرية (أم الجمال ، والمؤرخ بعام ٢٧٠م قيل إنه نبطى لكنه يمتاز بترابط الحروف . وأول شكل فى بناء خطنا هو ترابط الحروف .. أما النقش الثانى الذى جاء بعده بشمان وخمسين سنة ٣٢٨م وهو نقش (التمارة) بدا أنه عربى به شئ من الأثر النبطى .. أما النقش الثالث والرابع والمؤرخ أولهما بعام ٥١٢م وثانيهما ٥٦٨م فهما لا يختلفان شيئاً عن الخط الذى كتب به القرآن الكريم وكتب به رسائل النبى (ص) إلى الملوك والأمراء وغيرهم ●

(١) (الحجر) مدائن صالح ، وكان وطن الثموديين و(دادان) كانت وطن اللحيانيين وكلا المنطقتين موقعهما شمالى الحجاز .

(٢) سأذكر هذا فى موضع لاحق .

(٣) الخط الجنوبي هو اليمنى القديم ، وأطلقت عليه ثلاثة مسميات (المعينة) نسبة رلى الدولة المعينية . و(السيثى) نسبة إلى الدولة السيثية ، وأخيراً أطلق عليه (المسند) لأن هذا الخط عموماً منفصل الحروف وكانت حروفه تأخذ شكل الإسناد أى كان يسند بعضها إلى بعض .

وقفه على هذه النقوش

كما ذكرت أنه بدا لعلماء الساميات والمعنيين بالأمر من الإفرنج والعرب أن نقش قرية (أم الجمال) غربى حوران وهو على شاهد لقبر فهر بن سلى مريى جديمة ملك تنوخ أن خطه نبطى غير أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف .

أما النقش الثانى وهو على شاهد لقبر أيضاً لكنه لملك من ملوك (الحيرة) هو امرؤ القيس بن عمرو فبدأ فى طور الاكتمال أو دون ذلك فى هذا الحين ٣٢٨م ودونك نصه حسبما وُجد بسطوره الخمسة :

(تى نفسُ مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا بزجى فى حبيج لجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه العشوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدى هلك^(١) سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ليسعد ذو ولده)

وكما يبدو لنا أن النص بدأ باسم الإشارة للمؤنث (تى) وهو أحد ألفاظ عشرة للإشارة للمؤنث، وجاء بـ(تى) لأنه يشير إلى مؤنث وهى النفس أو المقبرة ، تى نفسُ مر القيس ، أو تى مقبرة نفس مر القيس ، (مر) مخففة من (امرى) والتخفيف والتسهيل معروف ، تقول فى قرأت ، قريت وفى ذئب ، ذيب وفى بئر ، بير . وهكذا (بر) هى الكلمة الوحيدة فى هذا النص غير العربية وهى آرامية تعنى (ابن) (ذو) تعنى الذى وهى معروفة أيضاً وكانت فى (طىء) وتجدها كثيراً فى أشعارهم واستشهد بها النحويون ، من هذه الشواهد قول سنان بن الفحل :

فلن الماء ماء أبى وجدى وبثرى ذو حفرت وذو طويت

أى وبثرى التى حفرتها والتى طويتها ، وجاء فى قسمهم : لا وذو فى السماء عرشه . أى لا

(١) يوافق (كانون الأول) (ديسمبر) ٣٢٨م ، وهذه النقوش تجد صورها فى كتاب (النصرانية وآدابها) للأب لويس شيخو ، وفى (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد على ، وفى مجلات علمية قديمة كان بعضها من إعداد العلماء الإفرنج وبعضها مشترك وأحسب أن الأب لويس نقل عنها وشارك فيها .

والذى فى السماء عرشه ^(١) ، (أسر التيج) أسر تعنى هنا عقد وعصب وهما يؤديان معناها ، و(التيج) هى التاج حذف منها الألف ، وذلك أثر من الآثار النبطية فلم يكونوا يثبتونها فى هذا الحين ، وفى السطر الثانى يعنى بالأسدين قبيلتى أسد ، ونراه أضاف إلى نزار ومذحج واواً وذلك أيضاً أثر نبطى فكانوا يضيفون إلى الأعلام واوا . و(عكدى) ^(٢) قيل إنها (عكدىا) حذف منها الألف وهذا شأنهم مع الألف ، و(العكد) تعنى القوة . و(جا) فعل ماضى (جاء) ، وفى السطر الثالث يقول ك (بزجى) ومعناها بدفع أو باندفاع القوة ، فى (حبج لجران) حبج تعنى أشرف وورودها هنا بمعنى (مشارف) .

و(شمر) اسم للملك من ملوك اليمن و(معدو) هى معد . وفى السطر الرابع أضاف النون إلى (وكلهن) وقيل إنها نون توكيد ، وفى السطر الخامس والأخير يقول : فلم يبلغ ملك مبلغه كعدى . أى لم يبلغ ملك مبلغه قوة ، ثم ينهى كتابته بالتنويه إلى تاريخ وفاة الملك (هلك سنة ٢٢٣ من كسلول ليسعد الذى ولده . أى ليسعد أولاده .

وهذا نص عربى كله ما خلا كلمة واحدة هى (بر) الآرامية التى تعنى ابن ، ثم بدا لنا أن فيه شيئاً من تضارب عند استعمالهم (لال) المعرفة وتركها ، ففى قوله : (ملك العرب كله وأسر التيج وملك الأسدين) استعمالها ، كذلك استعمالها فى قوله (ونزل بنيه الشعوب) وفى قوله (وكلهن فرسو لروم) حذفها من الفرس ، وأضاف إليها الواو التى تضاف عندهم للأعلام ، ثم رأينا الكلمة التى بعدها وهى (الروم) أضيف لأولها (لام) بدون ألف وهى خالية من الواو التى يضيفونها للأعلام . ترى أ تكون هذه اللام جارة وعليه لم يصف الواو ؟ الحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم بذلك وينبغى علينا ألا ننسى أنه نقش ومر على كتابته قرون عديدة تدنو من ستة عشر قرناً حين اكتشف ، فقد تكون طُمست منه بعض حروف أو غير ذلك من عوامل الدهر ، بيد أن هذا لا يغير من أهميته الكبرى على ما بدا لك وأنه قريب من الطور النهائى للكتابة العربية ، وخصائصه عربية ، ونحسب أن عقوداً تمر عليها تكون كفيلة لتصل فيها إلى الشكل المراد فما بالك بثلاثة قرون هى الفترة ما بين تاريخ كتابة هذا النقش وبين كتابة القرآن ومكاتيب الرسول (ص) إلى الملوك والأمراء وغيرهم .

وتلكم وقفة أخرى بعد إيضاحه :

(١) ترد (ذو) هنالك للمفرد المذكر والمفرد المؤنث ، سواء أكان من العقل أم لم يكن ، ومتى اشتركت بين أمرين مختلفين دلّ هذا الاشتراك على أنها تأتى بلفظ واحد لكل ما يطلق عليه الاسم الموصول .
(٢) الأستاذ شوقى ضيف "فى العصر الجاهلى" .

تى نفس امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كله الذى أسر التاج ، وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرّب مذحج بالقوة وجا بدفع القوة إلى مشارف لجران مدينة شمر وملك معد ونزل بنيه^(١) الشعوب ووكلمهم الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه قوة ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ليسعد أولاده ..

ثم يأتى بعده نقش (زيد) ، وزيد أطلال بين قينسرين والفرات ، وهو النقش الثالث وعليه ثلاث كتابات (يونانية) ، (سريانية) ، و(عربية) وخطه قريب الشبه جداً من الخط الذى كُتب به القرآن ومكاتيب النبى (ص) ، غير أنه قصير ولم يستطع العلماء قراءة أول كلمة من سطره ، ونفس الأمر وُجد فى كلمتين فى آخر السطر الثانى فبدأ هذا النقش غير مفيدة جملة مفيدة فائدة كبيرة من حيث خطه وشكله الكتابى ، ووجد بعد الكلمة المستعجمة أو المطموسة فى أوله (لفظ الجلالة) ثم جاء بعده أسماء أشخاص قيل إنهم بُنَاة كنيسة أو بُنَاة مشهد للقديس (سرجيوس) .. وهذه صورته :

(الإله سرجو بن منفو وبن امرئ القيس وشرح بن سعد وستر وشريح) .

طبعاً لم نفهم شيئاً عنه بسبب ما استعجم أو طمس فى أوله وفى آخر كلمتين ، غير أننا ندرك أن هؤلاء الأشخاص اشتركوا فى أمر أو عمل واحد دلّتنا عليه واوات العطف بعد كلمة سرجو ، فهل نقدر الكلمة المستعجمة فى أول النقش فعلاً ماضياً (بارك) ، والكلمتين اللتين فى آخره (بُنَاة الكنيسة) أو (المشهد) وعليه يجيء على هذا النحو : (بارك الإله سرجو بن منفو وبن امرئ القيس وشرح بن سعد وشريح بُنَاة الكنيسة) أو بُنَاة المشهد .

ونلاحظ أيضاً فى هذا النقش ترك الأثر النبطى واستعماله إلا أننا لا نجد به الأثر الآرامى .

أما النقش الرابع والأخير وهو نقش (حرّان اللّجا) بشرق الأردن فإن خطه لا يختلف عن هذا الخط ومن الحسن أنه لم يطمس أو يستعجم منه كلمة فجاءت جملة مفيدة رغم قصره . وهذا نصه : أنا شرحبيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنة ٤٦٣ بعد مفسد خير بعم هو مشهد ، قيل^(٢) مشهد (يوحنا المعمدان) والنقش يخبرنا بأمرين : أولهما بناء شرحبيل للمرطول ، وثانيهما خراب لحق بمدينة خير على يد أحد أمراء الغساسنة . لكنه بدا لم يتخلص من الأثر الآرامى والنبطى ، إذ رأينا لا يزال يستعمل كلمة (بر) ، وإضافة الواو إلى الأعلام وحذف الألف ، وإن كنا رأينا فى

(١) المراد (نزولهم ملوكاً على هذه الشعوب) .

(٢) الأب لويس شيخو اليسوعى فى (النصرانية وآدابها) ، وهو يعتبر أول المصادر العربية فى ذلك .

النقش السابق عليه بست وخمسين عاماً شبه متخلص منهما وأهمه أن (بر) أبدلت (ابن) وليس هذا قياساً فربما كانوا تخلصوا من كثير من الأثر الآرامى والنبطى فى زمن سابق لنقش (زبد) بكثير وربما كانوا ظلوا يكتبون بهما حتى بعد (حرّان اللّجا) ، بل الواقع يقول إننا لم نتخلص من الآثار النبطية والآرامية وغيرهما حتى يومنا هذا وهى فى صميم لغتنا .

وبعدُ فإن هذين النقشين كما ذكرت لا يختلفان شيئاً عن الكتابة التى كُتِبَ بها فى عهد النبى (ص) والخلفاء الراشدين (ر) ، ويدل للمعنيين بالأمر حقيقة . وكانت جامعة القاهرة^(١) قد أقامت معرضاً للمجموعة النادرة لرسائل النبى (ص) لملوك فارس والروم والحبشة وعظيم القبط وللمنذر بن ساوى وبعضاً مما كتب فى عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، وبمضاهاة هذه المكاتيب^(٢) وُجِدَتْ لا تختلف شيئاً عن كتابتى (زبد) و(حرّان) وهذه المكاتيب يرجع تاريخ بعضها للسنة السادسة من الهجرة ●

(١) أقيم هذا المعرض فى أبريل من عام ١٩٩٧ م .

(٢) ارجع إلى مركز بحوث ودراسات التراث الإسلامى بالقاهرة إن كنت معنياً بالأمر .

الحيرة وغسان وأثرهما التعليمي

ذكرت أنى متحدث عن أثر هاتين المملكتين فى العرب ، وقد رأينا كيف أن إخواننا الأنباط هم أساس هذا الأمر العظيم ، وهو اشتقاقهم لخط نبطى عربى من الأصل الآرامى ، وبعد ذلك عرفه إخوانهم فى شمالى الحجاز والجزيرة العربية وغيرها أسهل وأحسن من الخط المسند الذى كانوا يكتبون به منذ عهود قديمة فارتضوه واتخذوه بديلاً عنه ، وما وجدوا فى هذا غضاضة ولا تثريب ؛ إذ إنه قادم عن إخوة لهم أيضاً بل وأقرب منهم نسباً . إذن فالمملكتان جاءتا وهذا الخط قائم يعنى به أصحابه الأنباط متفرقين فى إخوانهم وفى غيرهم ، كذلك يعنون به وهم تحت الولاية الرومانية، ويعنون به تجاراً مقيمين أو متنقلين .. وهكذا شاءوا له الخلود ، ولو لم يكن الأمر على هذا النحو لذهب هذا الخط مع ذهاب سلطانهم (ببتراء) .

وكانت الظروف أخذت تتغير فى منطقة الشام ودخل غالب سكانها فى دين المسيح ما خلا الإسرائيليين ، وكان ضمن سكانها الأنباط الذين لم يغادروها ، وذكر فى عهد متأخر عن هذا أن من الأنباط من انخرطوا فى السبيل الدينى وغدا فيهم رهبان وأساقفة ، وغدا واجبا على هؤلاء تعليم إخوانهم من بنى جنسهم على الأقل ومن ثم ظهر مزيد لحاجتهم للكتابة والتدوين ومزيد تطور هذا الخط .

ثم إننا رأينا فى سيرة الغساسنة أنهم جاءوا هذه المنطقة وتسيطر عليها قبيلة قضاعة وعلمناها مسيحية ، فأتى صارت مسيحية وهى قافلة عن اليمن ولما يدين أهله بعد بالمسيحية ؟ أتى صارت إذا لم يكن سعى إخوانهم الأنباط إليهم به ؟ وغدا هذا داعياً لمزيد من الاهتمام بهذا الخط ومزيد للتطور والانتشار ، هكذا جاء الغساسنة والحال بالمنطقة قائم ، ثم ينبغى ألا ننسى قبل هذا وذاك أنه كان منتشرأ بهذه المنطقة المدارس السريانية والرومانية وكانت الأخيرة نظامية ولا تختلف كثيراً عن مدارسنا اليوم ، فالسنة الدراسية كانت فى أكثر من فصلين من فصول السنة ، ما عدا الصيف وجانباً من الربيع ، واليوم الدراسى يبدأ فى الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر ، وقد تكون هذه المدارس ألحقت فصولاً دراسية لإخوانهم فى الدين وجيرانهم العرب الذين هم ضمن

رعاياهم ، بيد أنى لم أقرأ هذا صراحة وهو احتمال قائم ، إنما الأمر غير المستبعد أن تكون هذه الفصول ألحقت بالأديرة والكنائس وهو دأبها حينئذ ، وكان التعليم بالمدارس الرومانية نوعين (تعليم عال) والتعليم الآخذ السبيل إليه ، وعُرفت مدينة بيروت فى ذلك الحين بأنها كانت تضم مدرستين عاليتين (الحقوق) و(الهندسة) وعُرفت مدن سورية بهذا أيضاً ، وكان التعليم العالى فى أبهى البلغاء يُنتخبون كأستاذة من قبل مجلس الشيوخ المحلى فى المدن الكبرى ، ومن قبل الجماعات عموماً فى المدن الصغرى ، وكان للمعلمين نقابات متفاوتة حسب منزلتهم لكل نقابة رئيس .

وعلى هذا الشأن العظيم نزل اليمينيون الشام ، وعُرفوا فيما بعد بالفساسنة ، وبعد أحداث وخطوب وبعد حقب من الدهر نراهم ظهرُوا وبلغُوا فى الدين والدنيا ما بلغوا . ثم بدا لنا أنه كان بينهم من يقرأ باليونانية ولولا الصدفة فى تاريخهم الغامض ما كنا عرفنا ذلك ، وعرفناه من خلال (المنذر بن الحارث) ملكهم ، وهذه الحادثة سببها أن الامبراطور (يطينوس) لما ضاق بهذا الملك بعد أمور كبيرة بينهما أمر كاتبه أن يكتب رسالتين واحدة لقائده (مرقيانوس) الذى كان مرابطاً بمدينة نصيبين يأمره فيها بقتل المنذر ، وأخرى للمنذر نفسه لم يذكر مضمونها ، لكن يبدو أنها كانت تطيب خاطره حتى يظفر به مرقيانوس ، ويقال إن الكاتب أخطأ فأرسل رسالة مرقيانوس إلى المنذر وأرسل رسالة المنذر إلى مرقيانوس ، فلما قرأها المنذر غضب غضباً شديداً وتحالف مع قابوس ملك الحيرة وجعل يغيران على مدن الشام الرومية ، ولما صار (طياروس) امبراطوراً ذهب إليه المنذر وأطلعه على الرسالة ، ثم عادت العلاقة بينهما حسنة .

وعرفنا ذلك أيضاً من خلال طرف حكاية بعض الشعراء الذين كانوا يفدونهم عليهم مادحين لنوال عطاياهم وهداياهم القيمة منهم حسان بن ثابت الذى يقول عن زيارته لآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم :

لقد رأيت عشر قيان فى مجلسه خمس يغنين بالرومية بالبرابط ^(١) وخمس يغنين بالعربية .

وهب أن التعليم الأجنبى ما كان يستطيع الرقى إليه إلا الطبقة الحاكمة والأغنياء - ومبلغ علمى أن مدارس الأديرة والكنائس تكون مفتوحة للجميع - فهل يليق أن يتطلع هؤلاء إلى التعليم الأجنبى وهم جاهلون القراءة والكتابة بلغتهم ؟ ما تلك سمة العربى الغيور على قوميته ولغته ، وهل لولا غيرة العربى وشدة حبه للغته كان كُتب لها النجاح والدوام منذ اشتقوا خطهم

(١) (برابط) جمع بربط ، والبربط هو العود واللفظ فارسى .

من الأصل الآرامى ؟ على هذا النحو جاء اليمينيون هذه المنطقة وهذا الخط قائم يكتب به إخوانهم الذين سبقوهم إليها ، فلما بسطوا نفوذهم عليها ثم عرفوا بالغساسنة احتضنوا هذا الأمر وعملوا على مزيد من انتشاره وأقاموا مدارس على غرار ما يرون من مدارس أجنبية دونهم ، واستعانوا بالبيزنطيين ليساعدوهم فى هذا ، وقد رأينا أن البيزنطيين ما كانوا يضمنون عليهم بشيء ، وإذا كانوا أقاموا لهم كنيسة مذهبها مخالف للكنيسة الامبراطورية ألا يقيمون لهم مدارس عربية ؟ .

وقد روى عن ملوك الغساسنة أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء ملوك الأنباط ، وأنه لم يبق من ميراث الأنباط شيء ماضى إلا هذه الكتابة - وحسبه من ميراث غال - ألا يجدر بهم أن يراعوه ويعملوا على انتشاره ؟ .

بقيت أمور تدلنا على أن المدارس العربية كانت قائمة عندهم سواء ملحقة بالأديرة والكنائس أو مستقلة .. من هذه الأمور المنافسة التى كانت بينهم وبين الحيريين ، وقد ^(١) بدا لنا جالياً أن المدارس والكتاتيب كانت منتشرة بالحيرة ، أفلا يكون هذا داعياً لمحاكاتهم من باب المنافسة أو الاقتداء ، وقد تكون غسان هى أصل هذا ، لكن لأن اليونانيين هم الذين كانوا يؤرخون لهم ثم انقطعوا فجأة عن هذا ؛ أغمض على كتاب السير والأخبار العرب أمرهم كثيراً .

ومن تلك الأمور ما حكى عن رجل كان يعيش فى بادية الشام ، ثم انتقل إلى مكة ، ولولا أحداث جرت بينه وبين سكانها الخزاعيين ما علمناه يكتب فى هذا الحين من الدهر ، وهذا الرجل هو (قصي بن كلاب) الجد الخامس للنبي (ص) سنة ٤٠٠ م الذى حين أراد إخراج خزاعة من مكة كتب إلى أخيه من أمه (رزاح بن ربيعة) يدعوه لنصرته ، فأقبل رزاح ومعه ثلاثة إخوة من أبيه وبمن أجابه من قضاة .. وإذا كان سكان بواى الشام عرفوا القراءة والكتابة فكيف يكون الحال عند سكان حواضره ؟

أحسب أنه سيخطر ببالنا أن قصياً خرج من مكة طفلاً ورجع إليها يافعاً ، وقد يكون لقى تعليمه بها ، فهذا وارد واحتماله كبير ؛ لكنه لا يغير من الأمر شيئاً فقصى كتب وأرسل بكتابه إلى من سيقروه والمرسل إليه بقضاة أو بعذرة والموطن واحد هو بادية الشام .. وهذا يعزز ما نوهت به بأن قبيلة قضاة نزلت دون الأنباط واستفادت من تعليمهم ، ثم جاء مواطنوهم الذين عرفوا فيما بعد بالغساسنة ووجدوه ووجدوا غيره بمدن الشام فعملوا على رعايته وانتشاره ما داموا اعتبروا أنفسهم خلفاء ملوك الأنباط .

(١) ستقف عليه توأ .

ثم يبقى أمر دماغ ، وهو أن جميع هذه النقوش التي عُثِرَ عليها ومرّت بك توّاً كانت بمنطقة الشام ودون موطن الأنباط ، ألا يكون هذا دليلاً على أن هذه الكتابة كان لها الرعاية والعناية من جميع من حلوا بالشام من العرب ، وكيف يكون لها هذه الرعاية إلا في دورها ، ودورها المدارس؟ وما كانت المدارس بغريبة على المنطقة على نحو ما قدمت .

غير أنى لى على النقش الثانى حديث من جهة العراق ، ولا يغير من الأمر شيئاً ههنا ، بل هو يبدى اهتمام العرب جميعاً بهذه الكتابة ، وأرجو أن أكون كشفت عن دواعى التعليم وثبوته بين عرب الشام ، والمقصود التعليم العربى بالخط العربى .

الحيرة

مملكة الحيرة أمرها مختلف عن أمر مملكة غسان إذ نقل كتاب السير والأخبار أمرها واضحاً جالياً.. ففي كتاب الأغاني يذكر أبو الفرج : أن حماداً أول من كتب من آل أيوب فخرج من أكتب الناس ، وطُلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر ، فلبث كاتباً له حتى ولد له ابن من امرأة من طيئ فسماه زيدا باسم أبيه ، وكان لحماذ صديق من الدهاقين^(١) يقال له (فروخ ماهان) وكان محسناً إلى حماد فلما حضرت حماد الوفاة أوصى بابنه إلى الدهقان ، فأخذ الدهقان زيدا فكان عنده مع ولده ، وكان زيد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ثم علمه الفارسية مع ابنه فحذقها وكان لبيباً فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد فى حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازية ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زماناً ، ثم إن النعمان النصرى هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه فأشار عليه مرزبان بزيد بن حماد ، فكان على الحيرة إلى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء . ونكح زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية ، فولدت له عدياً ووُلد للمرزبان ابن فسماه شاهان مَرْد ، فلما تحرك عدى وأيفع طرحه أبوه إلى الكتاب حتى إذا حذق العربية أرسله مع ابن المرزبان إلى كُتّاب الفارسية فكان يختلف مع ابن المرزبان ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس وأفصحهم بالعربية والفارسية ، ثم توسط له المرزبان فروخ عند كسرى ، فكان عنده معظماً ويكتب له بالعربية والفارسية ، وكان إذا أהלّ على مجلس خفّ له الحاضرون احتراماً ، وعلا شأنه على شأن أبيه ...

(١) جمع (دهقان) وهو لفظ فارسى، قيل معناه وجيه فى القوم، وقيل معناه كبير تجار . وقد وجدت كلتا الترجمتين .

رأيت أن أبا الفرج يذكر حماداً أول من كتب من آل أيوب وكان كاتباً للنعمان الأكبر ،
والنعمان هذا اعتلى عرش الحيرة ما بين نهاية القرن الرابع والعقدين الأولين من القرن الخامس
الميلادي ، ولا نحسب أن حماداً أول من كتب بالحيرة ؟ .

كذلك يذكر أبو الفرج : أن أبا المرقش عهده وأخاه حرملة إلى معلم نصراني من معلمى الحيرة
فعلمهما الكتابة .

وقصة المرقش وكتابه على رحل زوج مولاته معروفة لدى دارسى الأدب العربى ، مذكورة فى
بعض كتب الأدب .. وهذه الرواية تذكر : أن المرقش لما خرج طالباً ابنة عمه ومحبوبته فى أرض
مراد بعد أن زوّجَتْ هناك بدون علمه ، صحب معه مولاة له وزوجها وكان راعياً يرعى له وهو
الذى يسمّيه مرقش الغفلى ، وفى أثناء رحلتهم ودون أرض مراد أُعْتُلّ مرقش ، فجفاه وحببت
عليه المرأة ، ثم اضطرت لأن تطيع زوجها فى التخلّى عنه وأزماً أن يتركاه ، وأحس مرقش هذا
فانتظر غفلةً منهما وكتب على رحل الرجل :

يا صاحبيّ تلوّماً لا تعجلاً	إن الرحيل رهينٌ أن لا تعذلاً
فلعلّ بطلاً كما يُفرطُ سيئاً	أو يسبق الإسراع سيئاً مُقبلاً
يا راكباً إما عَرَضَتْ فلبغْنُ	أنس بن سعد إن لقيتْ أو حرّماً
لله دُرُكُما ودرُّ أبيكُما	إن أفلت الغفلى حتى يُقتلا
مَنْ مبلغ الأقوام أن مرقشاً	أمسى على الأصحاب عبثاً مثقلاً
ذهب السباع بأنفه فتركه	أغنى عليه بالجبال جيئلاً
وكأنما ترد السباع بلشوه	إذ غاب جمع بنى طبيعة منهلاً

فلما عاد الغفلى وامرأته أذاعا أن مرقشاً مات ، ثم إن حرملة نظر إلى رحل الرجل فقرأ الأبيات
فدعاهما وأمرهما أن يصدقاها ، ففعلا^(١)

ومن هنا نرى أن مملكة الحيرة كانت مقصداً علمياً فى هذا الحين يفد إليها أهل الجزيرة العربية
فيمكنون بها الوقت الذى ينالون فيه تعليمهم ، ثم يعودون إلى بلادهم متعلمين ، ولولا أن مرقشاً
شاعر ذائع الصيت ما كنا علمنا أن أباه أرسله وأخاه ليتلقيا تعليمهما بالحيرة ، وقد يكون هناك

(١) القصة تجدها بجزء (٥) من الأغاني لأبى فرج الأصفهاني ، وفى المفضليات عند ذكر المرقش .

ألف غيرهما وغير المشاهير الذين حفظ لنا التاريخ سيرتهم وجاء ذكر الحيرة في ثناياها ، نعم قد يكون هناك ألف أرسلهم أبائهم وعائلاتهم إلى هذه المملكة ونالوا تعليمهم بها ، لكن لكونهم أناساً عاديين لم يذكرهم التاريخ كذكره مرقشاً وأخاه حرملة من خلال سيرته ، وكذكره النضر بن الحرث الشقفي القرشي الذي قدم الحيرة ودرس بها علم العرب والفرس في التاريخ والأدب ، وكان إذا جلس النبي (ص) مجلساً ودعا فيه إلى الله وتلا القرآن وحذر قريش ما أصاب الأمم الخالية خلفه في مجلسه وحدثهم عن كتب رستم وإسفنديار والسابقين يقول^(١) : والله ما محمد بأحسن مني حديثاً وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها .

وكذكره المعلم (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر) ملك دومة الجندل الذي نال تعليمه بالحيرة ، ورجع إلى بلده يعلم الناس ، وقيل كان يخرج يعلم في غير مملكتهم .

وكذكره المعلم (جفينة) النصراني ظئر (سعد بن أبي وقاص) (ر) ، كذلك نقل لنا التاريخ أسماء غير هؤلاء لكونهم شعراء أو كانوا دون أحداث عظيمة مثلما مرّ بك من سيرة النضر ، وجفينة الذي قتله عبيد الله بن عمر بن الخطاب (ر) مع من قتلهم عقب مقتل أبيه .. أو من ذكرهم من باب إجلال مهنة المعلم ، فمثلاً بشخصية بشر بن عبد الملك لكونه أخاً للملك .

فهل كان المعلمون والمتعلمون كلهم كهؤلاء ؟ .

وما كانت المدارس والكتاتيب منتشرة في حاضرة المملكة وحسب إنما كانت منتشرة كذلك في مدن أخرى بل وفي القرى ، ففي ذكر مسير (خالد بن الوليد) (ر) من عين التمر وجد في كنيسة قرية من قرأها تسمى (النقيرة) أربعين غلاماً يتعلمون^(٢) فأخذهم وفرقهم في أصحابه وكان ضمن هؤلاء الغلمان عمران مولى الخليفة عثمان بن عفان (ر) .

وثمة قصة تدلنا على انتشار التعليم في الحيرة ، وهذه القصة تروى : أن عمرأ بن هند الملك كتب لطرفة بن العبد وخاله المتلمس كتابين مضمونهما قتلها وقال لهما : انطلقا إلى عاملي على البحرين فاقبضا منه جوائزكما ، أما سبب هذا فاختلف فيه ، قيل سببه هجاء طرفة له ، ولما أراد قتله خوفاً من لسان المتلمس ، فدعا الاثنين وكتب لهما هذين الكتابين ، وقيل سببه أن طرفة كان ينادم عمرأ الملك فأشرفت أخته فرأى طرفة ظلها في الكأس التي بيده فقال في هذا شعراً ، فحقد عليه عمرو .. وذكر في موضع آخر أن كليهما نالاه بالهجاء .. الخلاصة أنه كتب لهما هذين

(١) تجده في (سيرة ابن هشام) ، الجزء الأول ص ٣٨٩ ، وفي غيره من المراجع .

(٢) (الطبقات الكبرى) لابن سعد ، الجزء الثالث و (الكامل) لابن الأثير ، الجزء الثاني .

الكتابيين ، وخرجنا من عنده حتى إن بلغنا موضعاً بالنجف قال المتلمس لطرفة : تعلمن والله أن ارتياح عمرو لى ولك لأمر مريب عندي ، وأن انطلاقي بصحيفة لا أدري ما فيها لحماقة .. فقال طرفة : إنك لتسوء الظن وما تخاف من صحيفة إن كان فيها الذى وعدنا ، وإلا رجعنا فلم نترك له شيئاً ، وأبى طرفة أن يجيبه فى النظر فيها ، ففك المتلمس خاتم الصحيفة وعدل إلى غلام من ^(١) غلمان الحيرة فأعطاه إياها ليقرأها ، فشرع الغلام يقرأ وفى أثناء هذا أقبل غلام آخر يبدو أنه كان معه أو متطفل فأشرف فى الصحيفة ولا يدري من هى وقال : ثكلت المتلمس أمه .. هناك انتزعها المتلمس من يد الغلام وأتبع طرفة فلم يلحق به .

وهذه القصة وإن كانت تبدى لنا المتلمس أمياً فهي تبدى لنا مدى انتشار التعليم فى الحيرة ومدن العراق العربى - غلام يقرأ فى مكتوب فيأتى آخر وبمجرد ما يطل فيه يقرأ ما به .. أما يشبه هذا شأننا اليوم إذا ما كان شخص ممسكاً مكتوباً يقرأه وآخر دونه يشرف فيه يختلس منه النظر ، أو يقرأ معه .

ثم إنها تبدى لنا أيضاً أن الكتابة فى هذا الحين كانت بلغت كمالها وإلا ما كان استطاع الغلام أن يطل فى الصحيفة ويلتقط ما بها التقاطاً .

كذلك تبدى لنا أن الصبيان كانوا يتبارون ويتراءون بقراءتهم .

منهج التعليم فى الحيرة

هل كان التعليم بهذه المملكة مقصوراً على هذا ، أعنى على تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ومعرفة طرف من الدين وأخبار الأولين بما يلاءم عمرهم ؟ . إن المراجع والمصادر تحدثنا أنه لم يقتصر على هذا ؛ بل كان لديهم تعليم عال فى الدين والدنيا ، وقد دلتنا عليه مؤلفات فيهما .. وقد مرّ بنا الحديث عن النضر بن الحارث الذى قدم إليها ودرس بها الأدب والتاريخ الفارسى ، وقيل إن أباه سبقه إليها وتوقف بها إذ هو فى طريقه إلى (كلية طب جند يسابور) ، وقد يكون عناها أولاً ليتعلم بها الفارسية واليونانية ، أو على الأقل اليونانية التى هى لغة الدراسة بهذه الكلية رغم وجودها فى بلاد الفرس ، ثم بقاؤه فى هذه البلاد طيب معالج مشهود له .

أما تلك المؤلفات ففى علوم الدين وضع الأب (يوحنا الأزرق) فى النصف الأخير من القرن السابع الميلادى رسائل فى (التهذيب الرهبانى) وألف فيه كتاباً ، وكانت مؤلفاته باللغة العربية ،

(١) القصة تجدها فى (المعلقات السبع الطوال) بشرح الأنبارى وتحقيق عبد السلام هارون طبعة دار المعارف المصرية .

وَأَلَّفَ الْآبَ (يُوحَنَّا نِيشُوع) مَبَاحِثَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَنَقَلَ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ (الْأَدَابِ السَّرْيَانِيَّةِ) رَوَايَةً عَنْ (إِيشُوعِ عَدَاد) أَسْقَفَ حَيْرَى أَيْضاً فِي تَرْجُمَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْمَعْرُوفَةِ (بِالْبَسِيطَةِ) وَأَلَّفَ (يُوحَنَّا نِيشُوعُ بَرَسْرُوشَاي) مَعْجِماً سَرْيَانِيًّا .

وهذه المؤلفات الحيرية بعض من مجموعة ^(١) حفظها لنا الدهر ووصلت إلينا وأن كثيراً وعظيماً أخنى عليها .

وما كان الحيريون يكتفون بما في معاهدهم من علوم إنما كانوا يتطلعون إلى المزيد مما ليس لديهم ، فيشدون الرحال في طلبه .. في (الرَّهَّا) و(نصيبين) و(أنطاكية) وغيرها ، وكانوا كذلك يتخذون سبيلاً آخرأ في طلب العلم وهو استدعاء المعلمين إلى بلدهم .

من هم سكان الحيرة؟

لعل الحديث التعليمي عن الحيرة يجعل سؤالاً يلح على فكرنا وهو : متى أنشئت هذه المملكة؟ ومن هم سكانها ؟ وما العوامل التي جعلت منها منارة للعلم في هذا الحين من الدهر ؟

: المرجح أنها أنشئت في عهد سابور الأول الامبراطور الفارسي ، أما سبب إنشائها فهو حماية الحدود الفارسية من غارات الأعراب . أما سكانها فكانوا من العرب وهم العنصر الغالب وكانوا عدنانيين وقحطانيين وكان الملك في فرع لحم القحطاني ، أي اليمنى ، وكانوا أيضاً من الفرس ، والأنباط ومن سكان العراق الأصليين ^(٢) ... أما العوامل التي جعلت منها منارة للعلم فيبدو لنا من خلال هذه التركيبة السكانية أنها ضمت أصحاب عدة حضارات وهؤلاء جميعاً لو لم ينقلوا إليها شيئاً من حضاراتهم لنقلوا أبسط أمورها وهي إنشاء المدارس والكتاتيب لأبنائهم .

وهذا ما بدا لنا واضحاً من خلال سيرة (حماد) وصدافته للفرس ، وقد مرّ بنا أنه ألحق ابنه زيداً بالكتاب الفارسي بعد أن كان زيد تعلم العربية بالكتاب العربي في حياة أبيه .

ومثل ما جاء في ذكر يهود بابل الذين كانت لهم مدارسهم في (سورا) ونهر (دعة) و(فم البادية) .

وأحسبنا نلمس أيضاً من خلال هذه التركيبة أن أول ما أنشئ بها من مدارس كانت الفارسية

(١) الأستاذ يوسف رزق الله غنيمه في كتابه (الحيرة) ، طبعة بغداد .

(٢) أطلق المسلمون الفاتحون على بعض سكان العراق تسمية (النبط) لكن أحسبك تنتبه أن ثمة فرق بينهم وبين الأنباط الذين مر بك الحديث عنهم منذ قليل والذين هم عرب شماليون ، وقد وضحت لك هذا .

والعربية ، ثم أخذت تتسع لتشمل السريانية واليونانية وغيرها .

متى انتشرت النصرانية بها ؟

قد يداعب بالنا سؤال آخر وهو : متى تنصر سكان هذه المملكة العربية أو جانب كبير من سكانها وهي المنشأة الفارسية المجوسية ؟

إن هذا لا يعنينا هنا ، وما رأيت له تاريخاً أو كيفية محددة ؛ إنما لا ينكر أن غالب قبائل العراق قبل الإسلام كانت مسيحية شأنهم شأن إخوانهم في الشام ، وذكر^(١) أنه دون انعقاد مجمع كنسى بتاريخ سنة ٤١٠ م عليه توقيع رئيس أساقفة الحيرة ، ومن ثم تكون المسيحية عرفت سبيلها إليهم قبل هذا بكثير جداً إذ لا يليق أن يكونوا بلغوا هذه المنزلة في المسيحية وهم حديثو العهد بها ..

لكن الواضح والذي يعنينا هنا أن الكنائس والأديرة بها قامت بدور هام في تعليم العربية ورقيها .

وكانت اللغة العربية هي السائدة في هذه المملكة لكون غالبيتها من العرب وملوكها من العرب وما كان للفرس دخل في شئونها سوى اختيار البيت الموالي لهم ، وأيضاً كان يخضع لهذه المملكة العربية أجزاء من الجزيرة العربية ، ثم إن ملوكها وعربها جميعاً أرادوا هذا وسعوا نحوه جادين فتحقق لهم .

وكانت بها كذلك لغات لا تنكر وتعلم ولها مدارسها مثل الفارسية والسريانية واليونانية والعبرية والكلدانية ، وما كانت هذه اللغات مقصورة على أصحابها بل كانت تدرس لغيرهم وقد رأينا هذا في ذكر عدى وأبيه ، وفي ذكر لقيط بن يعمر ، وفي سيرة النضر بن الحرث ، وذكر عبود الحيرى الذى ترجم بين رستم والمغيرة بن شعبة وفي ذكر كثيرين غير هؤلاء تعلموا بها أكثر من لغة .

ويبدو أن هذه المملكة كانت ذات صفة تسامحية فهي مجوسية المنشأ نصرانية الأغلبية وعاشت بجوار هذه وتلك الوثنية والمناوية واليهودية وما صادفنى نزاع حدث بين طوائفها ، بل رأينا صداقة حميمة بينهم أحسبنا لمسناها من خلال الحديث عن حماد وأبنائه وسيرتهم مع الفرس وسيرة الفرس معهم ، وأحسبنا لمسناها كذلك من خلال تنوع المدارس والمؤلفات .

(١) الأستاذ جواد على في (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

الأثر الجنوبي بها

يبدو أيضاً أنه لم يكن للخط المسند والأثر الجنوبي شيء يذكر بهذه المملكة رغم أن ملوكها وجانباً كبيراً من شعبها من اليمن ، أو أصوله يمنية ، بل ليس ثمة ما يدل على أنه كان للجنوبية أثر في هذا الحين إلا في بعض جهات نائية من الجزيرة بما فيها اليمن نفسه وأعظم دليل على هذا تلك المكاتبات الكثيرة التي كانت بين النبي (ص) وبين ملوك ورؤساء اليمنيات فليس بهذه المكاتبات أى دليل على أنها كانت غير الشمالية اللهم إلا مكتوباً واحداً عرفنا من خلاله أن اليمنيين كانوا لا يزالون يحتفظون بلغتهم القديمة يستعملونها فيما بينهم إلا أنه يعرفنا أيضاً أن الشمالية صارت العامة ولم يكن للجنوبية إلا هذا الأثر الجانبى فى اليمن نفسه . وهذا المكتوب هو الذى بعث به النبي (ص) عياش بن أبى ربيعة إلى بنى كلال من حمير، وقال له إذ هو منصرف به: خذ كتابي يمينك وادفعه إليهم يمينك فى أيماهم ، فهم قائلون لك اقرأ ، فاقراً (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) . فإذا فرغت منها فقل : آمّن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأنيك حجة إلا وقد دحضت ، ولا كتاب زخرف إلا وذهب نوره ومُح لونه وهم قارئون فإذا رطنوا فقل ترجموا .

إذن لم يكن للجنوبية سوى هذا الأثر الجانبى فى اليمن نفسه . ونرجع للحيرة فنرى أنه لا أثر للجنوبية بها بل إننا نرى العكس ، نرى أن ملوكها عملوا على رقى الكتابة الشمالية وبدأ أنهم راعوا واحتضنوا أصحابها الأنباط شأنهم فى هذا شأن الفساستة ، ونحسب أن الأنباط الذين نزّلوا دون الفرات إبان الفُرقة سعوا أو ضُم بعضهم إلى هذه المملكة بُعيد إنشائها ، بينما سعى بعض آخر أو ضم إلى مدينة الأنبار .. بل إنى أرجح لقاء هؤلاء بأولئك قبل إنشاء الحيرة والأنبار حين كان العرب ينزلون الحيام دون الفرات منذ عهد قديم ، ثم نزل دونهم اللاجئون الأنباط ، هنالك كانت معرفة العرب العراقيين بالكتابة الشمالية النبطية ، وتمخص عن هذا تطور سريع فى الخط ؛ حتى إن أهل القرن الرابع الميلادى كانت الكتابة الشمالية تقترب من طور تمامها ونستطيع أن نلمس هذا من خلال نقش (النمارة) الذى هو دونك والمؤرخ بعام ٣٢٨ م ، فإنه وإن وجد بمنطقة الشام إلا أنه كان لشانى ملوك (مملكة الحيرة) امرئ القيس بن عمرو بن عدى الذى بسط نفوذه على هذه المنطقة وغيرها من المناطق العربية وتعاون مع الفرس والروم فى آن واحد ، ولا نحسب أن الملوك يكتبون أو يكتب لهم بغير خطهم ولغتهم ولو كانت كتابتهم بالمسند ماتوا فى الكتابة به حتى لو كانوا بمنطقة الشام وكان كاتبه شامياً . أما رأينا أن هذا دأبهم حين كانوا يتخذون الخط الجنوبي من قبل ،

سواء وجدوا بالشام أو بمصر أو بغيرهما . ولو كان لها استعمال في الحيرة ما كان حماد^(١) الراوية يعد ما يدنو من قرن ونصف من الهجرة قال : إن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب هي الفئوج (الكراريس) ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار^(٢) بن أبي عبيدة قيل له إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفروا وأخرج تلك الأشعار .

ولا كان هشام بن الكلبي^(٣) قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنينهم من أديرة وبيع^(٤) الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها . وإن كان أنكر على الرجلين قولهما فليس بسبب بلوغ الكتابة مبلغ التدوين ، إنما بسبب ما كان يُشاع في الناس حينئذ بأن العرب لم يدونوا في كراريس وكانت كتابتهم على العسيب والجلود والعظام ، وينكرون تدوين الشعر ألته .

لكننا رأينا ابن سلام في طبقاته أيضاً يقول : وكان عند النعمان بن المنذر من شعر العرب الجاهلية ديوان فيه أشعارهم الفحول وما مدح به هو وأهل بيته .

وإن نحن تركنا التصديق والتكذيب في أمر التدوين في الكراريس أو التدوين كلية وإن كان هذا غير مستبعد عن الحيرة منشأة الفرس وريبتها ومُخرجة أبنائها يتبؤون أعلى المناصب في دواوين ملوك الفرس ، إن نحن تركنا هذا نرى أنه لولا يقين هؤلاء في بلوغ الكتابة عند العرب الحيريين مبلغ التدوين حينئذ ما فاهوا بهذا البتة .

ثم إن المراجع والمصادر عرفت أن كان بالحيرة مؤلفات وتراجم في النصف الأخير من القرن السابع الميلادي ، فهل يتم هذا إلا إذا كان مرّ على كمال كتابتهم حقبة من الدهر .. ولو كان ثمة شك بأنها غير الشمالية ما فاهوا به كذلك وإلا كنا رأينا من ينبري لهم ويرد عليهم قولهم بأن لغة وكتابة الحيريين غير لغتنا ، مثلما فعل أبو عمرو بن العلاء وقال فيما أورد ابن سلام نفسه في طبقاته : ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريتنا ..

هكذا رأينا الحيرة في هذا الحين من الدهر .. كتاتيب ومدارس - عربية وغير عربية - ، ورأينا

(١) زعيم رواة الكوفة ، قيل توفي سنة ١٥٦ هـ وقيل ١٦٤ هـ .

(٢) زعيم التوابين الذين نادوا بشار الحسين بن علي ، وملك العراق حقبة وحاربه الزبيريون والأمويون ، ثم قتله الزبيريون عام ٦٧ هـ .

(٣) هشام بن محمد بن السائب راوية أيضاً توفي سنة ٢٠٤ هـ .

(٤) بيع جمع بيعة ، والبيعة الكنيسة .

إن أيفع الطفل بها وتحرك أرسل إلى الكتاب ، ثم المدارس ، وإن تطلع إلى مزيد وجده بها أو شد الرحال إليه في موطنه ، ومن ناحية أخرى كانوا يستدعون المعلمين من مواطن العلم ، ورأينا مؤلفات كبيرة في الدين والدنيا ، ورأينا مقصداً للعرب جميعاً يتزودون منها بالعلم ، وقد رأينا أن العرب من نواح مختلفة من الجزيرة لا يقعدون عن طلب العلم وشد الرحال إليه رغم بعد المسافات ولقاء الصعاب والمشقة .

الأنبار

قبل أن ندع العراق إلى داخل الجزيرة العربية لنقف على معرفتهم بالقراءة والكتابة لا يفوتنا الحديث عن مدينة الأنبار التي كان يستوطنها العرب منذ زمن بعيد والتي ينسب إليها بعض الإخباريين تعليم القريشيين والعرب القراءة والكتابة ، وإنني كنت أريد ذكر طرف مما كتبه الأقدمون في هذا الموضوع لا يتعدى اعتقادهم أن أصل الخط العربي يرجع إلى الأنبار وإياد ، ثم أوضحه وأرده إلى أصله على نحو ما سأفعل . وأكون بذلك قدمت إلى القارئ في كل ما تحدث به الأقدمون الطرف القريب من الصحة فيه ووضحته ، وذلك لأنني أرى أنه لا داعي من التشويش بما لم يعد منه جدوى بعد أن بين لنا السبيل العلمي الحقيقة واضحة ، إذ إن كل ما ذكره أولئك الأقدمون يكتنفه الخلط والتضارب والبعد عن الحقيقة وما عدنا نراه إلا ضرباً من عشواء لم تصادفه الإصابة مرة واحدة ، بل إنك لن تجد في كلامهم المعنى بالخط ذكرًا للأنباط أصحاب الأمر كأنهم لا يعرفون الأنباط ، أو كأنهم لا يريدون أن يعرفوهم إلينا ، إنما رأينا في أحاديثهم بعيداً عن هذا ذكر أنباط أصحاب عيٍّ وهجنة^(١) غير عربية ، وحين جاء في كلام هؤلاء الأقدمين ذكر شمالي الحجاز جاء ساذجاً من باب الأساطير ودون أن يدروا أنه موطن الخط العربي .. أما ذكرى إيّاه فلأنه ينبغي على أن أذكره ما دام كتب في هذا الموضوع وليقف عليه القارئ علّه يرى فيه شيئاً يوحى إليه بأمر ما ، ثم إننا سنجد في بعض فقرات أحاديثهم ما يعيننا ونستشهد به في بعض مواضع آتية دون أن يكونوا قصدوا بنا ذلك ، ولعلنا في النهاية نلتمس لهؤلاء الأقدمين العذر .

يقال في مسير خالد بن الوليد (ر) إلى الأنبار لإخضاعها وجد أهلها بارزين فأيقن أنهم مسالمون ولا علم لهم بالحروب فأمر رجاله أن يرشقوا عيونهم بالسهام ، ففعلوا وخُرقت يومئذ^(٢) ألف عين ، ولما احتل المدينة وصالح أهلها وظهروا بعد الرعب الذي نزل بهم رآهم يكتبون بالعربية

(١) لفت نظرك لهذا في صفحة سابقة .

(٢) ذكر الطبري في الجزء الثاني من (تاريخه) صفحة ٣٧٥ .

ويتعلمونها ، فسألهم من أنتم ، قالوا : قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام الامبراطور بختنصر حين أباح العرب ثم لم تُزل عنها . فقال ممن تعلمتم الخط ؟ فقالوا تعلمنا من إياده ..

وهذا ما أردت التوقف عنده والاكتفاء به ههنا ، وأحسبك ترى فى هذا ما يؤيد مذهبي^(١) بأن الأنباط أفادوا العرب فى العراق حين نزلوا دونهم قبل إنشاء الحيرة والأنبار وأن إياداً من أقدم القبائل العربية التى نزلت بالعراق وينسب إليها نشأة الخط العربى على نحو ما ترى . فمن أين جاءها هذا الخط خاصة وأن السبيل العلمى الحديث عرفنا أنه نبطى مشتق من الآرامى وموطنه شمالى الحجاز ، وقد بينت لك لجوء الأنباط دون إخوانهم فى العراق .. وأحسب أن الطبرى نقل هذا من اعتقاده بأن بختنصر هو الذى أمر ببناء مدينتي الحيرة والأنبار فإنه يذكر فى تاريخه أن الحيرة هُجرت قرابة خمسين عاماً قبل أن تعود للعمران ثانية ويُنصب عليها اللخميون ، بينما سارت الأنبار فى طريقها العمرانى .

وقد يكون هذا صحيحاً ، أى قفر الحيرة زمناً ودوام عمران الأنبار وهذا الأمر أكسبها نسب الخط العربى .

ومن ثم نرى فى هذا الجزء شيئاً من الصحة وقد وضحته وصحته .

وننظر إلى قول آخر تناول هذا ، وهو ابن النديم الذى يذكر فى (الفهرست) عن ابن عباس (ر) أنه قال : أول من كتب العربية ثلاثة رجال من (بَوَلان) وهى قبيلة كانت تسكن الأنبار ، وإنهم اجتمعوا ففرضوا حروفاً مقطعة وموصولة وهم (مرامر بن مرة) و(أسلم بن سدره) و(عامر بن جدرة) فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام .

وقول ابن النديم (وضع الصور) فهو يعنى صور الحروف الهجائية وقوله عن أسلم أنه (فصل ووصل) فيعنى بيان الحروف التى تكون مفصولة وموصولة فى الجملة أو الكلمة ، إذ ليس فى العربية حروف تعمل وهى منفصلة عن بعضها ، أما الفصل المعنى هنا مثل الألف والياء فى (الذى) فإنهما لا يكونان فى هذا الموضع إلا منفصلين ، لكن الفصل ليس صفة ملازمة لهما ولا لغيرهما إلا لوقوعهما فى مثل هذا الموضع .

وقوله أما عامر فوضع الإعجام ، فإنه يعنى إزالة العجمة عن الكلمة بالنقط التى تفرق وتبين

(١) (مذهبي) أى ما ذهبت إليه بفكرى ورؤيتى .

الحاء والجيم والحاء وهكذا .

ويرد ابن النديم فى معرض حديثه عن الخط : وسُئل أهل الحيرة ممن أخذتم العربى ؟ قالوا : من الأنبار .

أما البلاذرى فى (فتوح البلدان) فيذكر عن عباس بن هشام الكلبى أنه قال : اجتمع ثلاثة نفر من طيى بقة ، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدره وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار .

وتلك الأسماء التى نسب إليها الأقدمون الخط العربى ليست فى الحقيقة أسماء لأشخاص حقيقيين ؛ إنما مجرد أسماء وفُتت على هذا النحو ، وتوفيها هذا لجم عن تصحيف حدث بجمال سريانية كان السريان يطلقونها على أصحاب العلم والكتابة ، وإنك إن تأملت هذه الأسماء الثلاثة لصديق عندك هذا ، فاسم (مرامر بن مرة) هو فى الأصل تصحيف لجملة (مارا ما برماوى) ومعناها (شيخ شيوخ العلم بن حامل لواء العلم) واسم عامر بن جدرة تصحيف لعبارة (عمرايا بر جدرا) ومعناها (العماد الخاذق) و(أسلم بن سدره) تصحيف لجملة (شليما بر سدر) وتعنى التام العلم الخطاط . ولما كان السريان يطلقونها كذلك - أو هى جرت على الألسنة على هذا النحو - حسبها بعض العرب أسماء لأشخاص حقيقيين ، ومن خلال تأملك لهذه الجمل الثلاث أو الأسماء الثلاثة سيعتريك شك أنها لأشخاص ؛ لما هى عليه من سجع ، وسوف يذهب بك ظنك أنها صيغت على هذا النحو ليحسن وقعها فى الأسماع . ثم لا ننسى أن السريانية كانت معروفة فى الحيرة والأنبار ومنطقة الشام ويدرس بها قبل الإسلام وظلت كذلك إلى ما بعد الإسلام بثلاثة قرون ، وكان لأصحابها الفضل فى تعليم أبناء المسلمين الدراسات العليا ، كذلك كان لهم الفضل^(١) الأواحد فى التراجم الكبرى التى نقلت من اليونانية والسريانية إلى العربية .

والحقيقة أن السريانية لم تنته عند هذا التاريخ ورجعت تسيطر على جزء من منطقة الشام - لبنان - حتى القرن الثامن عشر الميلادى وهى لا تزال متداولة فى صلوات بعض الطوائف المسيحية العربية .

وفى موضع آخر من (الفهرست) يقول ابن النديم ؛ إذ هو يتحدث عن القلم العربى : اختلف الناس فى أول من وضع الخط العربى ، فقال هشام الكلبى أول من وضع ذلك قوم من العرب العاربة نزلوا عدنان بن أدد وأسماءهم (أبو جاد) و(هواز) و(حطى) و(كلمون) و(صعطفى)

(١) الأستاذ أحمد أمين فى (فجر الإسلام) ص ٢٠٣ وما بعدها .

و(قريشات) ، وهذا من خط ابن الكوفى بهذا الشكل والإعراب وضعوا الكتابة على أسمائهم ، ووجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم وهى الثاء والخاء والظاء والشين والغين فسموها الروادف ، وهؤلاء ملوك مدين وكان مهلكهم يوم الظلة فى زمن شعيب النبى ، وأورد شعراً على لسان أخت كلمون ترثيه به :

كَلَمُونَ هَذَا رَكْنِي هُلْكُهُ وَسَطُ الْمَحَلِّهِ
سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الْحَسَنُ نَاراً وَسَطُ ظُلِّهِ
جُعِلَتْ نَاراً عَلَيْهِمْ دَارُهُمْ كَالْمَطْمَحِلِّهِ

ويردف ابن النديم : قرأت بخط ابن أبى سعيد على هذه الصورة وبهذا الإعراب (أبجد هاوز حاطى كلمون صباع فض قرشت) .

ثم يقول بعد أن سرد هذه الصور : قالوا هم الجيلة الآخرة وكانوا نزولاً فى عدنان بن أدد أبو معد بن عدنان ، وأدد هو أبو اليسع بن الهميسع بن سلامان بن زلف بن حمل بن قيذ بن إسماعيل، فلما استعربوا وضعوا الكتاب العربى والله أعلم ، ثم يردف : وقال محمد بن إسحاق وأما الذى يقارب الحق وتكاد النفس تقبله فذكر الثقة أن الكلام العربى بلغة حمير وطسّم وجديس وإرم وحويل فهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن إسماعيل لما حصل فى الحرم ونشأ وكبر وتزوج فى جرحهم فهم أحوال ولده فتعلم كلامهم ، ولم يزل ولد لإسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأسماء أشياء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها ، فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية ، وكثر بعد معد بن عدنان ومما يصدق ذلك ما روى مكحول عن رجاله أن أول من وضع الكتاب ^(١) العربى نفيس ونصر وتيما ودومة وهؤلاء ولد لإسماعيل ووضعوه مفصلاً ، وفرقه قادور وزنت بن هميسع بن قادور .

ويتبع ابن النديم : قال محمد بن إسحاق أن نفرأ من أهل الأنبار من إياد القديمة وضعوا حروف (أ ب ت ث) وعندهم أخذته العرب ، وقرأت فى كتاب مكة لعمر بن شبة ويخطه أنه يقول أخبرنى قوم من علماء مضر ، قالوا الذى كتب العربى الجزم ^(٢) رجل من بنى يخلد بن النضر بن كنانة ، فكتبت حينئذ العرب ، وعن غيره (يعنى ابن النديم غير عمرو) قيل إن الذى

(١) يعنى بالكتاب (الكتابة) .

(٢) (الجزم) القطع ، ووضعوا الخط العربى تحت هذا المسمى ظناً منهم أنه قطع عن الخط المسند . أو فصل عنه .

حمل الكتابة إلى قريش بمكة أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وقيل حرب بن أمية ، وذكر أنه حين هُدمت الكعبة بأيدي القريشيين وجدوا فى ركن من أركانها حجراً مكتوباً فيه (السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة) ، وكان فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم فى جلد من أدام فيه ذكر حق لعبد المطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميرى من أهل زل صنعاء ، عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه . شهد الله والمكان .

ومن كُتّاب العرب أسيد بن العيص إذ وجد على حجر بمسجد المريين ، وقد حسم السيل عن الأرض مكتوب (أنا أسيد بن أبى العيص ، ترحم الله على بنى عبد مناف) أما ابن خلدون فحسب نفسه المصيب فى هذا الرجم بالغيب إذ قال فى معرض حديثه عن الخط العربى : إن الخط العربى بلغ فى دولة التبابعة فى اليمن مبلغاً من الأحكام والجودة لما بلغت دولة التبابعة من الحضارة والترف ، وأن الخط انتقل من اليمن إلى الحيرة على أيدي المناذرة . (يعنى ملوك الحيرة) ويذكر أيضاً : فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وهو الأليق من الأقوال ... يردف ابن خلدون : ورأيت فى كتاب التكملة لابن الأبار عن التعريف بابن فروخ القيروانى الفاسى الأندلسى من أصحاب مالك واسمه عبد الله بن فروخ بن عبد الرحمن عن أبيه قال قلت لعبد الله بن العباس يا معشر قريش خبرونى عن هذا الكتاب العربى ، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث محمد (ص) تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق ، مثل الألف واللام ، والميم والنون ، قال نعم ، قلت وممن أخذتموه قال من حرب بن أمية ، قلت وممن أخذه حرب بن أمية ، قال من عبد الله بن جدعان ، قلت وممن أخذه عبد الله بن جدعان ، قال من أهل الأنبار ، قلت وممن أخذ أهل الأنبار ، قال من طارئ طراً عليهم من أهل اليمن ، قلت وممن أخذه هذا الطارئ ، قال من الخلجان بن القسم كاتب الوحى لهود ...

أحسبك رأيت تضارب الأخباريين فى هذا الأمر ، إنما أحسبك أيضاً لمست يقينهم بقدم الكتابة عند العرب ، لكنهم تخبطوا فى الأمر خبط عشواء وأسرفوا حتى رأينا منهم من يعتقد بأنها وُجدت قبل ثلاثة آلاف سنة ؛ وذلك من خلال ما رددوا أنه وُجد حجر بركن من أركان الكعبة حين هدمتها قريش مكتوب عليه : (السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة ولا ندرى بأى لغة كتب السلف بن عبقر - رحمة الله عليه - ؟ لعلها كانت الهيروغليفيه ، وأن (باخوم القبطى) لما أحضره القريشيون لبناء الكعبة ترجم لهم لغة أجداده إن كانت ظلت متداولة لدى المصريين حتى مطلع القرن السابع الميلادى الذى هدمت فيه قريش الكعبة وأعاد

بناءها باخوم القبطى ، لكننا لا نشك فى أنهم قصدوا العربية التى نكتب بها وأنهم يرددون هذا ليعلمونا قدمها ، ثم إن غالب الذين تناولوا هذا الموضوع من القدماء جعلوا الكتابة توقيفاً من الله ، تعلمها آدم فكتب بها كتب الأمم كلها ، فلما أظلم الأرض الطوفان ، ثم انحسر عنها أصابت كل أمة كتابها .. ثم رأينا من أرجعها إلى إسماعيل وإلى أبنائه ، وإلى نفر من اليمن (أبو جاد) و (هوز) وأصحابهما، وقد لا يكون لهم وجود أصلاً وليسوا سوى أسماء وهمية كأسماء (مرامر) و(أسلم) و(عامر). ورأينا منهم من يرجع بها إلى مدين، ومنهم من يرجع بها إلى كاتب الوحى لهود وتلك إشارة عشوائية إلى شمالى الحجاز . ومنهم من يرجع بها إلى بنى النضر وتلك إشارة إلى الحجاز نفسه بل إلى قريش وذلك على رأى بعض الذين يقولون إن النضر هو أبو قريش ..

بدا لنا تضاربهم وخطأهم فى كل هذا ، وأن أقربه إلى الصحة القول القائل بأن مصدره الحيرة والأنبار والحجاز ، لكنهم لم يعلموا مصدره إلى الحيرة ، فزعم ابن خلدون أنه (اليمن) وحسب نفسه المصيب .

وزعم آخرون أنه الأنبار وأن مصدره إلى الأنبار إيراد ووقف علمهم عند هذا ..

وزعم بعض آخر أنه الحجاز ولم يذكروا مصدره إلى الحجاز . ومنهم من ذكر شمالى الحجاز لكنه ذكر خزعبلى .

إنما تخلل هذا وذاك كلام مفيد وصحيح لكنه لم يعن موضوع أصل الخط العربى ، من هذا الكلام ما نسبوه إلى (عامر بن جذرة) من إزالة العجمة وقد وضحته كما عناه الأقدمون والمعاصرون ، فإنا ذكر جميعهم هذا من يقينهم بأن النقط والعلامات والفواصل كانت موجودة منذ ما قبل الإسلام ، والذى يعنينا هو أمر إزالة العجمة ولا يعنينا إن كان عامر وصاحبه حقيقة أم وهماً^(١) ... ومن هذا الكلام ذكرهم لكتاب عبد المطلب الذى كان فى خزانة المأمون ، فإن عبد المطلب ذكر بالكتابة فى موضع آخر سأذكره لاحقاً .

ومن هذا الكلام ذكرهم لأسيد بن أبى العيص الذى وجدت كتابته على حجر ، وقالوا إنه من كتّاب العرب ، وللأسف ذهبت كتابته كما ذهبت كتابة كثيرين فى هذا العصر وأطلق على جماعة منهم (الكملة)^(٢) ، ولعلنا فى النهاية نلتمس لهم العذر ونرجع تضاربهم هذا إلى يقينهم بقدم

(١) لى عليه حديث قادم ؛ أى على النقط والفواصل .

(٢) جمع كامل وهو نعت كان يطلق على من جمع بين الفروسية والعموم والرمى إضافة إلى قراءته وكتابته .

الكتابة وإلى الكتابة الجنوبية بالذات وإلى حاضرتهم الممعة في القدم .

وقبل أن ندع هذا الفصل على أن أشير أن هذا القلم النبطي أو أن هذا الخط النبطي عُرف عنه قلمان فيما بعد (النسخ) وكان معروفاً في شمالي الحجاز والحجاز بـ (الأسطرلجلى) ، كان معروفاً في العراق وهو الخيري الكوفي ، وما ابتعد أحدهما عن الأصل ، ونحسب أنه أمر عن التجويد والشكل وليس الخصائص ويؤيد هذا كل ما قدمته دون يدك يعززه السبيل العلمي^(١) .

جاء في عقب حديث البلاذري عن الثلاثة الطائيين الذين اجتمعوا ببقة ذكره عن معرفة القرشيين للكتابة والقراءة فقال :

كان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً ، فتعلم الخط من أهل الحيرة ، ثم كان يأتي مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا ، ثم إن بشرأ وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الشقي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر فتعلم الخط منه عمرو زرارة بن عدس فسمى عمرو الكاتب .

بينما أسند ابن النديم هذه المهمة إلى أبي قيس بن عبد مناف أو حرب بن أمية أو رجل من بني يخلد بن النضر بدون مصاحبة المعلم بشر ●

(١) أكتفى بهذا هنا لكي لا أشوش على القارئ العادي الذي سيرى في النهاية صحة ما أشرت إليه ، أما إن كنت معنياً بموضوع الخطوط فثمة كتب تتناول هذا وأسهلها كتيب (قصة الكتابة العربية) للأستاذ إبراهيم جمعة ، وفيه يفند الرأي القائل بأن الخط الكوفي هو أصل الخطوط العربية ، ويثبت هذا للخط النبطي العربي ، ويتحدث كذلك عن الخطوط في عصور متأخرة من الإسلام ، أما أنا فمعني بإثبات الكتابة في عصر ما قبل الإسلام .

مكة والخط النبطى العربى

تحدثنا فى موضوع نشأة الخط العربى وعرفنا عن طريق العلم الحديث أصله ، ثم رأينا ما ذكره الإخباريون فى هذا الأمر وبدا لنا الخلط والتضارب ، ثم بعد ذلك رأينا ما ذكروه عن السبيل الذى عرف من خلاله القريشيون الكتابة العربية . فهل نأخذ به ونصدق أن القريشيين ما عرفوا الخط العربى النبطى إلا فى ذلك الحين على يد المعلم بشر أو غيره ؟ إن المتأمل لأحوال المكيين يستبعد أن يكونوا تخلفوا عن الخط النبطى إلى قبيل القرن السادس الميلادى وهو الحين الذى سعى أو بالأحرى ما قيل أن بشرأ سعى فيه بهذه المهمة التعليمية . لماذا ؟ لأن مكة كانت حينئذ وقبل هذا الحين بكثير ذات موقع هام وكانت الرباط بين اليمن والشام ومن ثم بين الشرق والغرب ، وموقع مثل هذا لا يُظن أنه يكونون متخلفين وبأيديهم ممر الأمم فى مقدمتهم الأنباط الذين كانوا يمرون بهم ذهاباً وإياباً .

يقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى^(١) : كانت مكة أصل علم الأخبار ومعدن معرفة السير والأمصار ، ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلا بالعرب ومنهم ، وذلك أن من سكن مكة من العمالقة وجرحهم وآل السميمدع بن هونة وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية ، وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس .

ثم لا ننسى أن منطقة الحجاز كانت متاخمة للاتحاد النبطى أو لجنوبه العربى المتمثل فى الثموديين واللحيانيين ، وقد دلت المراجع والمصادر يقينا أنهم نزلوا الطائف وهذيل وهما أقرب بلدين من مكة موقعاً وصلة ، وإذا كانت الأخبار تحدثنا أن كثيراً من الأنباط تفرقوا فى الجزيرة العربية والعراق ؛ فما بالك بمكة وتلك مكائنها وقد عرفوها عن كذب ؟ ، بل إن من الكتاب المعاصرين^(٢) من رجعوا بأصل القريشيين إلى الأنباط وأنهم نزلوا شعاب مكة ورءرس جبالها حين أزال الرومان سلطانهم واستولوا على (بتراء) . وإن كان حسبنا هذا داحضاً عن القريشيين

(١) فى كتابه (طبقات الأمم) ، فى باب علم الأخبار .

(٢) دكتور شوقى ضيف فى (العصر الجاهلى) ص ٤٩ .

صفة التخلف فيأني أزيد وأذكر أموراً تعزز عندك هذا ، من هذه الأمور أمر يتعلق بشخصية قصي بن كلاب وبنيه ، ولقصي رواية رواها كتاب السير والأخبار أقدمها إليك : هو ابن كلاب بن مرة بن كعب القريشي ، وأمه فاطمة بنت سعد ، ينتهي نسبها إلى أزد شنوءة حلفاء في بني كنانة ، وكان له أخ اسمه (زهرة) ومات أبوه وهو طفل ، ثم تزوجت أمه من رجل عذري يدعى ربيعة بن حرام وكان لا يزال زيد صغيراً فحملته وإياها إلى بلاده ، بينما كان أخوه زهرة شب وبقي بمكة ، فلذلك أطلق عليه قصي ، أي لأنه أقصى عن بلده . وينشأ في قوم زوج أمه ، ويبدو أنه مع مرور الأيام أحدث أمراً جعل رجلاً منهم يقول له : إنك لست منا وغريب فينا . فقال قصي : ممن أنا ؟ فقبل له أسأل أمك ، فسألها فقالت له : أنت خير منه وأبوك كلاب بن مرة وأهلك بمكة ، ثم جهزته وانتظرت به حتى يخرج حجاج قضاة فيخرج معهم ، ولما خرج حجاج قضاة خرج معهم حتى إن بلغوا مكة أسلموه لأخيه زهرة وأهله .

وتنتقل بنا الرواية بأن قصياً تاجر وجمع المال وبدت عليه مخايل السيادة ، ثم خطب إلى كبير خزاعة وصاحب سدنة البيت الحرام (حليل بن خُبَشِيَّة) ابنته حُبَي ، ثم تزوجها . ويبدو أن حُلَيْلاً لم يكن لديه أبناء ذكور إذ نراه لما أحس بدنو الأجل أو لما ثقل أعطى مفاتيح الكعبة إلى ابنته حُبَي زوج قصي وجعل إليها ولايتها ، فقالت إنني لا أقدر على فتح الباب وغلقه ، فقال لها : إنني أجعل هذا إلى رجل يقوم به ، فجعله إلى سُلَيْم بن عمرو المكنى بأبي غُبْشان ، وكان أبو غُبْشان سكيراً معوزاً ، ويبدو أنه طلب يوماً الخمر فلم يجد عنده ما يشتريه به . تقول الرواية : فعرض عليه قصي أن يبعه إياه مقابل مفاتيح الكعبة ، وتنتهي الرواية هذا العرض بأن قصياً أخذ مفاتيح الكعبة من أبي غُبْشان مقابل زق خمر وقعود ، أو يكون قد فعل ذلك في حالة سكر أبي غُبْشان . أي أتم هذه الصفقة في أثناء سكره ، إذ إن الرواية تحدثنا أن خزاعة حين علمت ذلك ثارت على قصي ، فاستنفر هو قریشاً وكتب إلى أخيه من أمه يستنفره ، فجاء أخوه ومعه أخواه من أبيه ومن نهضوا معهم من قضاة .

ونستطيع أن نلمس ما كان في فترة ما بين إقبال رُزاح أخو قصي ومن نهضوا معه من بادية الشام وبين غضب الخزاعيين بأنه جرت خلالها مفاوضات ومساعٍ حميدة بين زعماء خزاعة وبين صهرهم قصي لاسترداد مفاتيح البيت الحرام وذلك حرصاً على المصاهرة التي بينهم ، لكن يبدو أن هذه المفاوضات والمساعي لم تجدد شيئاً وأن الأمور تأزمت حين جاء المدد القضاعي ، إذ رأينا قصياً يحاربهم بقریش وبهذا المدد وينتصر عليهم وينفيهم عن مكة نفياً .

وأخذ قصى بعد ذلك يمارس سلطات الملك الظافر فأول ما فعله هو تجميع القريشيين وإنزالهم من الشعاب ورؤوس الجبال وفرق فيهم أحياء خزاعة ، وأسكنهم بطاح مكة وكانوا قبلاً يحرمون ذلك ولا يجزؤون ، ثم بنى دار الندوة وهى بمثابة مجلس تشريعى أو مجلس شيوخ وكانت العضوية به لا تكون إلا لمن بلغ الأربعين سنة ولمن له رجاحة العقل وعرف مداراة الأمور ، وكان لقصى رياسته لكونه ^(١) ملك مكة لا بيت فى أمر من أمور مكة صغيراً كان أو كبيراً إلا بإذنه ونحت مشورته ورأيه .

وعمل قصى على أن يكون الأمر فى أبنائه من بعده فتم له هذا . فهل ترى رجلاً له تلك التطلعات وذلك الصنيع ويقدم على ما أقدم عليه ، ويمهد لأبنائه سبل السيادة والجاه ولا يفكر فى أهمية الكتابة وهو (الكاتب) .

وهب أن قصياً ما فكر فى ذلك ، ألا يفكر فيه أبنائه وخلفاؤه وقد أصبحت مقاليد الأمور بأيديهم ويعملون على أن تكون فى أبنائهم ويدعون الأمر ويبقون متخلفين عن هذه الكتابة حتى يكبر الجيل الثالث من أبناء قصى ليتعلم أحدهم على يد المعلم بشر وهو أخو ملك وهم أبناء ملك وقد غدا الناس يجلونهم وينشرون بينهم أنهم خير العرب وأعز العرب .

أحسب لا يليق بعد هذا تخلف قريش عن الخط العربى النبطى السهل وأن يظلوا متخذين المسند الصعب حتى قبيل القرن السادس الميلادى ، أى بعد اشتقاقه عن الآرامى بأكثر من ستة قرون وقد بينت لك هذا أثناء الحديث عن مملكة النبط . والمروجون هذا جاءوا بأبيات نسبوها لشاعر كندى يخاطب بها قريشاً :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم	فقد كان ميمون النقية أزهر
أتاكم بخطط الجزم حتى حفظتم	من المال ما كان شيئاً مبعثراً
وأنقذتم ما كان بالمال مهملاً	وطامنتم ما كان منه منفراً
واغتنيتم عن مسند القوم حمير	وما دبرت فى الكتب أقيال حميرا

أنجعلنا هذه الأبيات نصدق حقاً أن بشراً هو الذى علم القريشيين الكتابة الشمالية ، أم نذهب مذهب الذين يقولون فى مثل هذا الشأن أنها ما أنشئت إلا لتبدى المجد المؤثر فى القحطانية على

(١) ليس هذا رأى ولا أنا الذى أصبح عليه هذه الصفة ، إنما نقلته عن ابن جرير الطبرى فى (تاريخه) وابن هشام فى (سيرته) وابن سعد فى (طبقاته) .

العدنانية ، وذلك حين علت قريش رقاب العرب والعجم ؟

والحقيقة أنى أميل لهذا ولا أميل لتخلف قريش عن الخط النبطى حتى زمن بشر المعلم أو غيره لما بدا لنا ، وأن هذا الخط عرقه الحجازيون فى طوره الأول وأخذ لديهم مراحل التطور غير منفصلة عن شماله وشرقه ما دام مصدره واحد وما دام أصحابه نزلوا بين هؤلاء وأولئك ، إلا أنه قد يكون مال كل متهما لشكل لا يبعد عن الأصل ، فبدا هذا يميل للتربيع ^(١) وذلك للتدوير .

ثوابت النفى وجيل النهضة من أبناء قصى

رأينا على أى نحو ساد قصى مكة وأثر ^(٢) أهلها له بالملك بعد أن نفوا سكانها السابقين ، ثم أخذ الرجل يمارس سلطات الملك ، وأخذ كذلك يمهّد لأبنائه سبيل السيادة ، فساروا عليها وأصبحت بأيديهم مقاليد الأمور ، وأهمها أمر الكعبة لعائده المعنوى والمادى لتعظيم كثير من العرب لها ، ولم يكد يمر على رحيله غير عقود حتى نرى الجيل الثانى من أبنائه لا يكتفى بما يفرض من ضرائب وإتاوات على من ينزل ببلدهم سواء كانوا حجاجاً ^(٣) أو تجاراً عرباً أو غير عرب إنما تطلعوا لأعظم من هذا وبدأوه بالخروج لإقامة العلاقات والمعاهدات ، ونحسبهم تأملوا الأحوال دونهم فرأوها ملاءمة ورأوا أنفسهم أهلاً لأن ينهضوا بهذا ..

فها هو اليمن قد أصابه الوهن ومحتل من قبل الأحباش وأهله مشغولون بأمرهم ، وها هم الفرس والروم فى حروب مهلكة ، ثم تلك المناوشات وحروب الشارات التى تكون بين المملكتين العربيتين من حين لآخر ، وحتى لو لم تكن هذه الحروب ذات بال فإن هناك أمراً أهم وهو نظرة العرب داخل الجزيرة إلى هاتين المملكتين على أنهما تابعتان لقوى أجنبية ، وفى المقابل نظرهم لمكة على أنها القوة العربية المستقلة ، ويعزز هذا وذاك وجود البيت الحرام بها ، وأيضاً كان ينظرها الفرس والروم بنظرة قريبة من هذه ، فإذا كانت كل من الإمبراطوريتين لمحجت فى إقامة مملكة عربية على حدودها لحماية هذه الحدود من إغارة الأعراب فإنها لا تملك تلك الحماية داخل الجزيرة العربية والذى يعنيه ههنا هو الجانب التجارى البرى ، وتعلم كل منهما أن هذه الحماية بأيدي القريشيين وحدهم . هنالك نهض هاشم بن عبد مناف وللأمر وخرج إلى أنقرة ليقيم هذه

(١) ذكرت هذا عند الحديث عن الخط الإسطرئلى والنسخ ، أى هذا داخل فى حيزهم ، وأشرت أيضاً إلى المصدر الذى من خلاله تقف على أمر الخطوط .

(٢) المراجع سالقة الذكر .

(٣) ابن فقيه فى (البلدان) .

العلاقات والمعاهدات بينهما ، فلاقاه القيصر واحتفى به ^(١) وأجابه ، وكتباً بينهما كتاباً بأن يختلف بموجبه القريشيون في الولايات الرومية آمنين ، وكلمه هاشم بأن يكون لهم مثل هذا في أرض الحبشة ، فأجابه أيضاً ، وكتب بهذا إلى نجاشي الحبشة حليفه ، فخرج هاشم بعد ذلك إلى نجاشي الحبشة مثلاً عن بلاده فلقي الترحيب وقامت بين البلدين العلاقات والمعاهدات ، وخرج أخوه نوفل إلى العراق وفارس لنفس الغرض ، فتحقق له ما تحقق لأخيه ، ثم خرج المطلب إلى اليمن لنفس الأمر فما خاب مسعاه ، ثم قصدوا هذا عند باقى ملوك وأمراء ومشايخ البلاد والقبائل العربية ، فتحقق لهم هذا كله .

وعندئذ اختلف الأمر من تجارة عابرة إلى تجارة دائمة وعابرة وإقامة دائمة وعابرة لرعايا تلك البلاد في مكة ، وللملكيين في بلادهم إن شاءوا . فجعل هذا كله مكة تزدهر ازدهاراً عظيماً ، ثم عمل أبناء قصى على ازدهار الناحية الثقافية بمكة ومنطقة الحجاز ؛ ليكون لديهم مثابة أخرى للعرب ، ورأوا أكبر انتشار لها حينئذ الأسواق فأقاموا للمثقفين فيهم وفى سائر العرب القباب بها ، وأقاموا أيضاً القباب للخطباء والأخبار والقساوسة والحكماء كل يعرض بضاعته ويشرح بعقيدته ويعظ ويخطب ، فعاد هذا كله عليهم بمزيد من العائد المعنوى والمادى وتحقق لهم ما تطلعوا إليه وغدت منطقتهم مركزاً ثقافياً كذلك . وفى المفضليات فى ذكر (علقمة بن عبدة) أورد المفضل : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه كان مقبولاً وما ردوه كان مردوداً ، ويؤكد هذا ما روى فيما بعد من أمر الوليد بن المغيرة .

وحديثه فى نفر من قريش حين حضرهم موسم الحج ، وكان النبی ﷺ يدعو العرب إلى الإسلام فى هذه المواسم ، فقال الوليد : إنه حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه فلا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : قل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل قولوا وأسمع ، قالوا نقول كاهن . قال : ما هو بكاهن ولقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه . قالوا : نقول مجنون ، قال : لقد رأينا الجنون وعرفناه . قالوا : نقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

وهكذا كانت مكة من الناحية الثقافية والعلمية بأن يقصدها العرب ، فما قبلت من شعرهم كان مقبولاً وما ردوه كان مردوداً ، وأظننا نرى منزلة كهذه لا يبلغونها بدون قاعدة علمية ، وأظننا نرى أنهم قطعوا نحوها حقبة من الدهر لا تليق أبداً أن تكون متزامنة مع معرفتهم الحديثة بالكتابة ، أو

(١) ذكر الطبرى فى الجزء الثانى من (تاريخه) .

بعدها بثلاثة أو أربعة عقود وهو ما يرجح أنه الزمن الذى أقبل عليهم فيه علقمة إن نحن قدرناه أول مجلس تحكيم لهم ، وهذا الزمن يوافق الثلث الأول من القرن السادس الميلادى وهو ترجيح لظهور علقمة بن عبدة . وعليه ترى أنه قريب العهد من الحقبة التى حددوا فيها قيام المعلم (بشر) بمهمته التعليمية ونزوله مكة وهى قبيل القرن السادس الميلادى ، فهل يليق أن يبلغ المكيون تلك المنزلة فيما يدنو من نصف قرن ، ألا نظرت إلى قول الوليد : لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

ونخال لولا الإطالة لقال ووافره وكامله ورملة إلى آخره من بحور الشعر وضروبه ، ونخال لو كانت هناك ضرورة لذكر غيره من علوم العربية لذكرت فقد كانت متداولة ^(١) .

ثوابت النفى والجبل الثالث والرابع

رأينا ثوابت النفى لحدائبة الكتابة الشمالية فى مكة والآن نبين ثوابت النفى لقلة هذه الكتابة فيهم . بدا لنا أن مكة كانت مقصداً دينياً ومقصداً ثقافياً والتماس قوة وعزة ، وفى هذا يقول أحد أبناء قصى وهو أبو سفيان بن حرب :

أبا مطر هلم إلى صلاح ^(٢) ليكفيك الندامى من قريش
وتنزل بلدة عزت قديماً وتأمين أن ينالك رب جيش

ثم نرى مكة فى ظل هذين الجيلين أصبحت مركزاً اقتصادياً هائلاً وبلغ أهلها من الغنى والترفع بأن كان منهم من يشربون فى كتوس من ذهب ويأكلون فى صحاف من ذهب ، ^(٣) وتبلغ أعداد عبيدهم ومواليهم وأحلافهم بأن كانت لهم أحياء بظواهر مكة ، وفاقت المملكتين الغربيتين فى هذا ، بل إن العرب كانوا يرون منزلة أغنياء القريشيين كمنزلة قيصر وكسرى ، ويصور الشاعر أحدهم قائلاً :

يوم ابن جُدعان بجنب الحزورة كأنه قيصر أو ذو الدسكرة

كل ذلك بلغوه بفضل التجارة التى صارت زمامها بأيديهم وهيأتها الظروف ، وبفضل

(١) سيأتى حديث فيه بموضع قادم .

(٢) كانوا يطلقون على مكة (صلاح) .

(٣) ابن دريد فى (الاشتقاق) .

الضرائب والإتاوات ، ثم سوق المال الذى عرف طريقه نحوهم مع النهضة التجارية الكبرى واتخذ له مركزاً لديهم . ودون هذا كله الجناح الدينى والثقافى ، ونحسب أن تلك الأمور تجعل مكة تفتقر دائماً إلى الأيدى العاملة ، والأيدى العاملة هنالك ليست هى التى تعنى بالإبل وتقوم بما يشبه هذه الأعمال ؛ إنما الأيدى الكاتبة التى تسجل دواعى التجارة والضرائب وسبل الصرافة التى لا تقل كثيراً عن السبل المعاصرة ، ثم إن تعاملهم التجارى لم يكن حاضراً كله ؛ إنما فيه التأخير الكلى والجزئى وكان فيه ما لم يعد يلائم عصرنا ، مثل تجارة الرقيق . وما كان يفوتهم فوائد التأخير الكلى والجزئى ، وقد ورد فى كتب الأخبار والسير كتابتهم للدين ، مثل الكتاب الذى ذكر توفى فى (الفهرست) والذى يذكر بأنه كان فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب فيه حق له على فلان بن فلان الحميرى من أهل زل صنعاء . وورد فى سيرة أسماء بنت مخربة بن جندل جدة الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، إذ تحكى الربيع بنت معوذ بن عفراء عنها قائلة : دخلت فى نسوة من الأنصار على أسماء فى زمن عمر بن الخطاب (ر) وكان ابنها عبد الله يبعث إليها بعطر من اليمن ، وكانت تبيعه إلى (الأعطية) فكنا نشترى منها ، فلما جعلت لى فى قواريرى ووزنت لى كما وزنت لصواحبى قالت : اكتبن لى عليكن حقى ، فقلت : نعم أكتب ... فهذه تاجرة قریشية فارقت مكة إلى المدينة وفارقت عهداً إلى عهد ولم تفارق أصول التعامل التجارى وأهمه تدوين الدين لأصالة الأمر فيهم وأثره فى تعاملهم حتى ورد فى أشعارهم وأشعار العرب عموماً ، يقول أبو ذؤيب الهذلي الحجازى يصف كاتباً :

أدان وأنبأه الأولو ن أن المدان المملى الوفى
فمنهم فى صحف كالربا ط فيهن ررث كتاب محى

وقال علياء بن أرقم بن عوف :

أخذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل جارٍ أو ظلم

ألا نظرت إلى هذا ورأيت مُراد كتابة الدين لا يختلف عن مراده اليوم . ويؤكد هذا القرآن العظيم فى كبرى آياته (آية الدين) وسورة هى أكبر سورة (البقرة) : " يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله . فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً . فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ؛ أن تضل إحداهما فتذكر

إحداهما الأخرى ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم .

وكان هناك أمر أدعى للمسجلات وهو توظيف الأموال ، تلك التي كان يبعث بها أغنياء العرب ومن دونهم لاستثمارها لدى أرباب التجارة القرشيين ، ومنهم من كان يبعث بما عنده من سلع أو رقيق أو حلى ، وما كان هذا الأمر مقصوراً على الرجال دون النساء ؛ إنما كان النساء يفعلن هذا أيضاً على نحو ما رأينا فى سيرة السيدة (خديجة بنت خويلد) (ر) وكان يستطيع فعله كل من يقدر عليه . انظر إلى قول أحد القرشيين إذ هو يستحثهم على الخروج لمحاربة المسلمين قبيل بدر : يا معشر قريش إنه والله ما نزل بكم أمر أجلّ من هذا أن تستباح عيركم ولطيمة قريش التي فيها أموالكم وحراثتكم ، والله ما أعلم رجلاً ولا امرأة من بنى عبد مناف له نش فصاعداً إلا فى هذه العير .

ألا تأملت قوله (نش فصاعداً إلا فى هذه العير) أى أن كل أموالكم بضاعة تحملها هذه العير . وأوضح لك الأمر أكثر فأعرف إليك (النش) ، النش هو عملة صغيرة كانوا يستعملونها حينئذ وهى أصغر عملة لديهم ، وكان الدرهم يساوى عشرين نشاً .

وتخصيص طعيمة بن عدى لبنى عبد مناف ههنا لا يعنى أنهم وحدهم الذين لهم القليل والكثير بهذه البضاعة التي ظنوا أن المسلمين استولوا عليها ، فقد كانت التجارة فى قريش وفى غيرهم إنما هو خصهم لأنهم رهط النبی ﷺ ولعله خاف أن يقعدوا عن النهوض لحربه فذكرهم بهذه البضاعة التي كل أموالهم فيه حتى النش .

ونحن لا يمكن أن نتصور قيام هذا الأمر بدون تسجيل كتابي يعرف المودعين ويحدد ما أودعوه ، ثم ينبغي علينا ألا ننسى أمراً مهماً هنا ، وهو الزمن الذي يكون بين أخذ المال واسترداده سائلاً كان أو بضاعة ، فنحن نعلم أن أمر الخروج للتجارة كان يستغرق شهوراً عندهم ، وقد نظل الوديعة لحول كامل ؛ حتى تتم الرحلتان القرشيتان (رحلة الشتاء ورحلة الصيف) . فهل نتصور قيام كل هذا بدون تسجيل كتابي ؟ وما بلغ القرشيون من ثراء وترف وبما وسعت بلدتهم بكل شئون المال على النحو الذي رأيت فكان لزاماً عليهم اتخاذ الكتبة ، ولعل هذا أغرى كثيراً من العرب ومنهم لأن يعلموا أبناءهم وأنفسهم ؛ ليلحقوا بالوظائف الكتابية لدى القرشيين .

وقد بدا لنا أن المستضعفين كان في استطاعتهم هذا، وذلك مما رأينا في سيرة (عمار بن ياسر) (ر) بأنه كان يكتب ويقرأ وارتقى إلى إمارة مصر من أكبر الأمصار الإسلامية وهو (الكوفة)، وعلى نحو ما رأينا من سيرة (عبد الله بن مسعود) (ر) الذي ارتقى ليكون صاحب بيت مال هذا المصر.

ومثل (خباب بن الأرت) (ر) الذي أول ما يطالعنا في سرية إسلام (عمر بن الخطاب) (ر) أن سببه خباب وصحيفته التي كان يُقرئ منها فاطمة أخت عمر وزوجها .

ومثل أبي بصير مولى أزهر بن عوف الذي كتب إليه النبي ﷺ، فقرأ رسالته وهو على فراش الموت^(١).

ومثل أبي موسى الأشعري (ر) ، ومثل أبي رافع مولي النبي ﷺ الذي قيل إن ابنه عبيد كتب (لعل بن أبي طالب) (ر) ، وغير هؤلاء من المستضعفين الذين حفظ لنا التاريخ أسماءهم ؛ لكونهم شاركوا في الأحداث الإسلامية ، ونحسب أنه أسقط أسماء مئات من الكتبة الذين لم يشاركوا ولم يقحموا أنفسهم في الأحداث الإسلامية الكبرى حتى مقتل الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) (ر) ثم مقتل الخليفة الرابع (علي بن أبي طالب) (ر) مثلما كان من هؤلاء .

يؤكد هذا قول المسعودي الذي يذكر^(٢) أنه أسقط أسماء كثيرين من الكتبة ؛ لأنهم غير جديرين بأن يسجل أسماءهم مع الذين سجلهم لكونهم لم يزدوا في كتابتهم للنبي ﷺ على ثلاثة كتب .

وتلك نظرة المسعودي ورؤيته ، لكن هؤلاء الذين لم يعرهم اهتماماً كتبوا بلا شك في أمور شتى مما تتطلبه حوائج مكة ، لكنهم لم يواصلوا الكتابة مع الرسول ﷺ ؛ لظروف لا نعلمها ، ولعلها كانت كثرتهم حوله - كما ستري لاحقاً - وأولئك وصلت أسماؤهم إلى المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ فأسقطها فما بالك بالذين لم تصل إليه أسماؤهم أصلاً .

ثوابت النفس وأثر الكتابة في الجيل الرابع والخامس

لم تكن القراءة والكتابة عند المكين لدواعي التجارة وحسب ؛ إنما كانت ذات أهمية في سائر شئونهم اليومية وكانوا يجعلونها ويهابونها ، وذلك يبدو لنا من خلال أمور منها الرؤيا التي تراءت لعاتكة بنت عبد المطلب ، وتهديد عمرو بن هشام لأخيها العباس لأن لم تصدق هذه الرويا ليكتبن

(١) سأذكر هؤلاء في موضع قادم .

(٢) في كتابه (التنبيه والإشراف) .

فيهم كتاباً أنهم أكذب بيت في العرب ، وأصل هذه الحكاية أن عاتكة قبل مجيء ضمضم^(١) ملكة بثلاث ليال رأت في منامها رؤيا أفرعتها ، فبعثت إلى أخيها العباس فقالت له : يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفرعتنى وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة فاكم منى ما أحدثك به . فقال : وما رأيت ، قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه وفيما هم حوله مثل به بعير على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعير على رأس جبل أبى قبيس ، فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى كانت أسفل الجبل فأفضت فما بقى بيوت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منه فلقة ، قال العباس : اكنميتها ولا تذكرها لأحد ، ثم خرج فلقي الوليد بن عقبة وكان صديقاً له فذكرها على مسمعه واستكتمه إياها ، لكن الوليد لم يكتمها هو الآخر وذاعت حتى بلغت مسمع عمرو بن هشام ، فلما لقي العباس قال له : يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم النبئة ؟ قال العباس كأنه لا يعلم : وما ذاك ، قال عمرو : يا بنى عبد المطلب أما رضيتم بأن يستبأ رجالكم حتى تتبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنها قالت : انفروا فى ثلاث ، فستربص بكم هذه الثلاث فإن كانت ما قالت كذباً سنكتب^(٢) كتاباً بأنكم أكذب بيت فى العرب .

وتذكر الرواية أن العباس بعد أن سمع منه هذا لبث قلقاً خائفاً ألا تصدق الرؤيا ويكتب فيهم هذا الكتاب .

تُرى لو لم يكن للكتابة الانتشار الكبير والأثر العظيم كان خافها العباس هكذا أو كان لوح بها عمرو أصلاً ؟

وأهمية الكتابة ونشرها على الكعبة ليس مستحدثاً فى عصر النبى ﷺ بل هو قديم ، ففى سيرة جده عبد المطلب يروى الطبرى : أن نوفل بن عبد مناف عمه وهو آخر من بقى من بنى عبد مناف ظلم ابن أخيه على أركاح (ساحات) وكانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية من الخزرج ، فتتصف عبد المطلب عمه فلم ينصفه ، فكتب إلى أخواله بيثرب يقول :

يا طول ليلى لأحزاني وأشغالى هل من رسول إلى النجار أخوالى^(٣)

(١) هو (ضمضم الغفارى) الذى بعث به أبو سفيان يستنفر قريشاً إذ علم أن المسلمين سيعترضون طريقة ويستولون على البضاعة التى فى معيته ، وذلك قبل معركة بدر .

(٢) تمجدها فى الجزء الأول من (سيرة ابن هشام) ، وفى الجزء الثانى من (الكامل) لابن الأثير وفى الجزء الخامس من (الأغانى) .

(٣) بقية القصيدة تمجدها مع هذه القصة بالجزء الثانى من (تاريخ الطبرى) .

ولما بلغت القصيدة بنى النجار قدم عليه ثمانون ركباً ، فأنأخوا بفناء الكعبة ولما رأوا نوفل بادروه بقولهم : أيها الرجل أنصف ابن أختنا في ظلامته ، فقال : أفعل بالحب والكرامة ورد عليه الأركاح ونصفه .

ولما انصرف بنو النجار إلى بلدهم ، دعا عبد المطلب رجالات من خزاعة وتحالف معهم وكتبوا بهذا صحيفة وعلقوها على جدار الكعبة .

والأمر أبعد عهداً من كتاب الخزاعيين وعبد المطلب وأبعد أثراً أيضاً ، فقد كان ضمن الصور المعلقة على جدار الكعبة صورة للنبي إبراهيم عليه السلام وفي يده مجموعة من الأقداح مكتوب على جزء منها (افعل) وعلى آخر (لا تفعل) ، وكانوا إذا ما أقبلوا على أمر مصيرى كالحرب والزواج والسفر يأتون بتلك الأقداح ، ويضعونها في وعاء ، ويحركون الوعاء تحريكاً يجعل هذه الأقداح ، تختلط ، ثم يمد المعنى يده فيتناول واحداً منها ، فإذا كان مكتوباً عليه (افعل) فعل ، وإذا كان مكتوباً عليه (لا تفعل) ، قعد .

وهذا أمر قد نراه ساذجاً ، لكنه رغم سذاجته يبدى لنا شيئاً يعنينا هنا وهو أن الكتابة كانت هي الأسرع إلى خواطرهم وأيديهم ، وهذا شأن الكتابة ، ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت هناك أمور كثيرة وهي تلائم الكتابة وغيرهم كلونين مختلفين مثلاً (أخضر) و(أحمر) امض ، توقف .

ومن تلك الأمور (صحيفة المقاطعة) التي علقت على الكعبة ، وهي الصحيفة التي وافق على صياغتها كثير من القريشيين ، ومضمونها كما نعلم مقاطعتهم لبنى هاشم وعبد المطلب ، فهذا أمر هام يريدون أن يجنوا أثره ونتاجه سريعاً وكذلك يريدون أن يكون هذا الأثر والنتاج عظيماً فما وجدوا غير الصحف ليلبغوا بها هذا وما كان للصحف حيثئذ إلا التعليق فعلقوها على أهم موضع يقصده أهل مكة والعرب .

وكان ثمة موضع تعليق آخر تعلق عليه الصحف وهو المجلس التشريعي أو مجلس الشيوخ ، ففي (طبقات فحول الشعراء) يقول ابن سلام عند الحديث عن عبد الله الزبيري : أصبح الناس يوماً بمكة وعلى دار الندوة مكتوب :

ألهى قُصياً عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير^(١)
وأكلها اللحم لا خليط له وقولها رحلت غير أنت غيرُ

(١) (السفاسير) جمع سفسير ، والسفير هو السمسار .

وربما كانت الصحف تعلق بأماكن أخرى كثيرة لكنها دون هذين المكانين فى الأهمية فسقط ذكرها.

اتخاذ الكتابة فى جميع الأغراض

إن الدارس ، وربما القارئ ، لحياة العرب قبل الإسلام وصدره باعتباره فترة اتصالية سوف يجد أن المكين والعرب استخدموا الكتابة فى جميع الأغراض التى تحتاج إلى تدوين ، مثل المعاهدات وما يدخل فى حيزها ، ومثل الهبة والجوائز والأوقاف والتصدق والرسائل المختلفة ، ومثل تنظيم المياه بينهم والدور وحصر الزروع على الأشجار والأرض ، وبعد جنيها ، وكتابة المغانم على أنواعها . وستبدو لنا أخبار العرب فى هذا الشأن من خلال تعاملهم مع القريشيين الذين حازوا على كل اهتمام كتاب السير والأخبار .

المعاهدات

منها التى ذكرتها آنفاً بين هاشم بن عبد مناف وقبصر الروم ، ثم المعاهدات التى تلتها بين أخويه ومن خرجا إليهم ، والمعاهدة التى كتبها النبى «ﷺ» بعد نزوله يشرب والتى كانت بين المهاجرين والأنصار من جانب وبينهم وبين اليهود من جانب آخر ، ومعاهدة كتبها النبى «ﷺ» مع بنى ثعلبة الغسانيين ، وأخرى كتبها مع اليهود بعد أن اغتال المسلمون كعباً بن الأشرف .

ومن هذه المعاهدات ما شملت الحلف والمناصرة على نحو ما رأينا من حلف عبد المطلب ورجال خزاعة والذى أنشد فيه عبد المطلب يقول :

سأوصى زبيراً^(١) إن توافت منيتى بإمساك ما بينى وبين بنى عمرو
أن يحفظ الحلف الذى سنّه شيخه ولا يلحدون فيه بظلم ولا غدر
ومثلها معاهدة حلف ذى المجاز الذى يشيد به الحارث بن حلزة قائلاً :

واذكر حلف ذى المجاز وما قُدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي ، وهل ين قص ما فى المهارق^(٢) الأهواء

(١) (الزبير) ابنه .

(٢) المهارق جمع (مهرق) والمهرق صفحة كانوا يكتبون فيها ولّى فيه حديث قادم ، ويعنى الحارث أنهم دونوا ما تعاهدوا عليه ، ولك زن تتأمل هذين البيتين لترى أهمية الكتابة عندهم .

ومنه حلف الرسول ﷺ مع نعيم بن مسعود .

وشملت المعاهدات صيغة الحفاظ على الأموال والأموال ، وهذه الصيغة تكون بين اثنين وأكثر ، وتعقد بين مقيمين ببلد واحد ومقيمين ببلدين متباعدين . كما روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : كاتبت أمية بن خلف كتاباً يحفظنى فى صياغتى بمكة وأحفظه فى صياغته بالمدينة .

وشملت المعاهدات المودة والمهادنة . منها ما جاء فى ذكر أول غزوة غزاها الرسول ﷺ وهى (غزوة الأبواء) أنه وادع مخشى بن عمرو الضمرى زعيم بنى ضمرة ألا يغزو المدينة ولا يكتر عليه جمعاً ولا يعين عدداً ، وكتب وإياه كتاباً بهذا .

ومنها هدنة (الحديبية) وهى معروفة .

وشملت المعاهدات كتب الأمان التى كانت تكتب للأفراد والجماعات ، مثل كتاب سراقه بن مالك الذى خرج متعقباً الرسول ﷺ وصاحبه (ر) حين خرجا مهاجرين ؛ وذلك لما علم أن قريشاً رصدت مائة ناقة لمن يردهما أو يرد الرسول ﷺ ، يقول ابن هشام فى السيرة : لما كبا بسراقه فرسه مرات وأدرك أنه غير بالغ النبى ﷺ وصاحبه (ر) نادى ، فقال النبى لأبى بكر : انظر ماذا يبغي منا ، فلما سأل أبو بكر ، قال سراقه : تكتب لى كتاباً يكون بينى وبينك ، فقال الرسول ﷺ : اكتب له يا أبا بكر .

ومنه ما كتبه النبى ﷺ لمطرف بن الكاهن الباهلى حين وفد عليه على رأس وفد باهلة وكان الكتاب لباهلة عموماً .

ومنه ما كتبه ﷺ لأعرابى من بنى زهير بن أقيش وهم حى من عكل .

ومنه ما كتبه ﷺ ليهود بنى عاديا من تيماء .

وقريب من هذا ما كتبه ﷺ ليوحنا رؤية صاحب (أيلة) أو أسقفها بأن يحفظوا ويمنعوا ، لكن بعد أن اشترط عليهم الجزية وقرى من يمر بهم من المسلمين .

وقريب من هذا (المكاتبة) ، والمكاتبة غالبها كان بين اثنين سيد ومسود ، والمسود إما كان عبداً أو أسير حرب ، وقد جاء فى ذكر إسلام سلمان الفارسى أنه كاتب على غرس خمسمائة فسيلة . وفى موضع آخر أنه كاتب على ثلاثمائة ودية عالققة وأربعين أوقية ذهب ، وقد عاونه المسلمون فى أدائها .

وكانت المكاتبة تعقد بين الرجال وبينهم وبين النساء ، وكذلك يتعاقد النساء بينهن ، ففى ذكر

السيدة جويرية بنت أبي ضرار زعيم بنى المصطلق ، وزوج النبي ﷺ فيما بعد أنها كانت ضمن سبايا بنى المصطلق ووقعت فى سهم ثابت بن قيس (ر) فكاتبتة على الفداء .

وفى ذكر السيدة أم سلمة (ر) زوج الرسول ﷺ يقول مولاها أبو نيهان (وكان مكاتباً لها) : إنها قالت له يا أبا يحيى عندك ما فضل من كتابتك ، قلت نعم ، قالت فادفعه إلى ابن أختى فقد أعتته به فى نكاحه ، قال : فبكيت وقلت لا أدفعه إليه أبداً ، فقالت : إن كان بك أن ترانى فلا ترانى فإن رسول الله ﷺ قال : إذا كان عبدٌ مكاتب إحداكن ما بقى عليه من كتابته فاحتجبن منه .

وعن سعيد بن سلم وعُتيم بن نسطامى : أن سالم سبلان أخبرهم أنه كان مكاتباً لرجل من بنى نصر وكان يرحل بأزواج النبي ﷺ ولا يحتجبن منه ، وكن لا يحتجبن عن المملوكين المكاتبين ، فردا أعتقن احتجبن^(١) .

ولعلنا نرى المعاهدات تشمل كتابة (الدين) لأن المدين يتعهد بأداء ما عليه من دين وقد مرّ بك ذكر هذا تواتراً .

الأوقاف والتصدق

كتبوا فى الأوقاف والتصدق ، فقد جاء فى ذكر^(٢) دارة الأرقم بن أبى الأرقم التى نزل بها الرسول ﷺ ، أن أبا يحيى حفيد عثمان بن الأرقم قال : دعيت دار الأرقم دار الإسلام وتصدق بها الأرقم على ولده فقرأت نسخة كتابته التى كتبها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قضى عليه الأرقم فى ربه ما حاز الصفا أنها محرمة بمكانها من الحرم لا تباع ولا تورث ، شهد هشام بن أبى العاص وفلان مولى هشام) . ولم نزل هذه الدارة صدقة قائمة حتى كان زمن أبى جعفر المنصور .

الوصية والإقطاع

جاء فى ذكر^(٣) أبى ضميرة مولى الرسول ﷺ وهو فارسى الأصل أن النبى ﷺ كتب له

(١) ذكر هذا فى (سيرة ابن هشام) الجزء الثانى وفى (الطبقات الكبرى) لابن سعد الجزء الخامس والثامن وفى تفسير القرطبى باب فى هذا الموضوع بالجزء الثانى عشر ، وله عليه شرح مطول أورد فيه ما جاء من أحاديث وآيات ، وما يعنيه لفظ المكاتب لغوياً واصطلاحياً . فإن كان يعنك الأمر فارجع إليه .

(٢) (الطبقات الكبرى) جزء (٣) .

(٣) المرجع السابق .

كتاباً بالوصية ، وبقي عنده ، ثم بقي عند ولده إلى زمن المهدي فقدم عليه به الحسين بن عبد الله بن أبي ضميرة فأخذه ووصله بثلاثمائة دينار .

وكتب النبي ﷺ بالوصية لوفد الروهايين وهو حي من مذحج ، وأوصى لهم فيه بحاد مائة وسق بخيبر .

وكتب لثور بن عروة بن عبد الله القشيري قطيعة حين وفد عليه على رأس وفد قشير .

وكتب لزيد الخيل بإقطاعه فيد وأراضين .

وسأله رجل شيباني أن يقطعه أرض الدهناء ، لا يجاوزها من بني تميم أحد إلا مسافراً أو مجاوزاً ، فقال النبي ﷺ لكاتب بين يديه : اكتب له يا غلام ، وهنالك انبرت امرأة تميمية كانت في صحبة الشيباني وقالت : يا رسول الله إنه لم يسألك السوية إذ سألك ، إنما الدهناء عندك مقيدك الجمل ومرعى الغنم ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك ، فقال النبي ﷺ لما سمع منها هذا : أمسك يا غلام . (أى لا تكتب)

رسائل البريد

وكتبوا رسائل البريد ، لكن لم يبد لنا أن العمل به كان نظامياً حينئذ ، أى لم يذكر له ديوان ولا أناس كانوا عليه . وإن كان ذكر البريد والرسالة ورداً^(١) فى موضع واحد ، ورأينا أقدم هذه الرسائل رسالة قصى الذى استنصر فيها أخاه والقضاة ، ومثلها رسالة حفيده عبد المطلب التى بعث بها لأخواله يثرب ..

ومن الرسائل العادية رسالة حنظلة بن أبى سفيان إلى أبيه حيث كان بنجران ومعه العباس بن عبد المطلب وكتب فيها يبلغه بقيام النبي ﷺ بدعوته .

ورسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد ، وكان خالد خرج كارهاً لقاء النبي ﷺ وأصحابه (ر)، لكن النبي ﷺ سأل عنه الوليد وقال : لو أتانا لأكرمناه وما مثله سقط عليه الإسلام عقله ، فكتب الوليد بهذا لخالد ، فوقع الإسلام فى قلبه .

ويدخل فى حيز الرسائل . رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء وزعماء القبائل يدعوهم إلى الإسلام .

(١) سأعاود ذكرهما فى موضع قادم .

ومن الرسائل ، رسائل التحذير . كرسالة حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يحذرهم فيها خروج الرسول ﷺ على رأس جيش كبير قاصداً مكة .

ومثلها رسالة بـُجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يحذره فيها ويدعوه ليقدم على النبي معتذراً .

وقريب من هذا الرسائل التي كان يبعث بها العباس عم النبي إلى الرسول ﷺ يعلمه فيها أخبار القرشيين المعادين له ، يقول ابن سعد فى (طبقاته) أسلم العباس بمكة قبل بدر وأسلمت أم الفضل معه حيثئذ وكان سبب مقامه بمكة أنه ^(١) لا يُغيبى على النبي بمكة خبراً .

وكانت هناك الرسائل التي كان النبي ﷺ يتلقاها من عماله على البلاد التي خضعت له ، مثل الرسائل التي بعث بها عماله على اليمانيات وكان أكثرها فى أمر الأسود العنسى ، ورد الرسول ﷺ برسالة تقول : اقتلوه مصادمة أو اغتيلاً ^(٢) .

ومثل ما جاء فى سرية (مؤتة) حين بلغ المسلمون (معان) ونزلوا بها ثم جاءتهم الأخبار أن هرقل نزل (مآب) فى مائة ألف من جذام وبهراء ولخم ، فأقام المسلمون ليلتين لينظروا أمرهم ، ثم اتفقوا ^(٣) أن يكتبوا إلى النبي ﷺ ليخبروه بهذا ..

أما بقية هذه الأمور فأنقلها عن الجهشياري حيث يقول فى كتابه (الوزراء والكتاب) : هذه أسماء من ثبت على كتابة رسول الله ﷺ . على بن أبى طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحى ، فإن غابا كتبه أبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه فى حوائجه ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن ثمر يكتبان ما بين الناس المدائنات وسائر العقود ، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم فى مياههم وقبائلهم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء ، وكان معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى يكتب مغانم الرسول ﷺ ، وكان حنظلة بن الربيع ابن أخى أكثم بن صيفى الأسيدى خليفة كل كاتب من كتّاب النبي ﷺ .

وأغفل الجهشياري أو لم تصل إليه أسماء نفر ذكرهم المسعودى عند تناوله هذا الموضوع ، وأولئك نفر : الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت وكانا يكتبان أموال الصدقات ، وحذيفة بن

(١) تجده فى ذكر إسلام العباس بن عبد المطلب ، الجزء الرابع .

(٢) ذكرها ابن الأثير فى الجزء الثانى من كتابه (الكامل) .

(٣) نفس المرجع .

اليمان يكتب خرص^(١) الحجاز .

وينوه إلى علم زيد بن ثابت ، فيقول : وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك ويحيب في حضرة النبي ﷺ ويترجم له بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية وقد تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن ، وكتب له عبد الله بن سعد بن أبي سرح ثم لحق بالمشركين مرتداً ، وكتب له شرحبيل بن حسنة الطابخي حليف قريش ، وكان إبان بن سعيد والعلاء الحضرمي يكتبان بين يديه . ويختتم المسعودي هذا الفصل بقوله : إنما ذكرنا من أسماء كتّابه من ثبت^(٢) على كتابته واتصلت أيامه فيها وطالت مدته . أى أنه أسقط ذكر كثيرين لم يكونوا ممن كتبوا أكثر من ثلاثة مكاتيب بين يدي النبي ﷺ ، ويصدق هذا ما رأيناه في قوله : اكتب له يا غلام ، وأمسك يا غلام ، حين أراد حريث بن حسان الشيباني أن يقطعه النبي ﷺ أرض الدهنان ، فلا يليق أن يقول الرسول ﷺ لأحد أصحابه الكتبة : اكتب يا غلام وأمسك يا غلام ، وقد يكون هؤلاء الغلمان الذين يكتبون بين يديه جزءاً من مجموع ما أسقطهم المسعودي ولم يلتفت أو بشر إليهم الجهشياري إن كانت بلغتهما جملة أسمائهم وكلاهما من معاصري القرن الرابع الهجري .

ألا رأيت كثرة الكتبة حول الرسول ﷺ حتى كان لكل واحد منهم اختصاص ، وكانوا درجات ومنهم من يكتبون الوحي ومنهم يكتبون إلى الملوك الأجانب بلغتهم ويترجمون في حضرته ، وذكر أن من هؤلاء من كان يتقن أربع لغات أجنبية ، ومنهم من يكتبون فيما يعرض من أموره وحوائجه ، ومنهم من يكتبون بين الناس المدائنات ومختلف العقود والمعاملات ، ومنهم من يكتبون أموال الصدقات ، ومنهم من يكتبون الزروع والثمار ومنهم من يكتبون بين الناس في مياهم وقبائلهم ودورهم ومنهم من يكتبون بين الناس في مياهم وقبائلهم ودورهم ومنهم من يكتبون المغانم ، ومنهم من يكتبون الأخماس^(٣) ومنهم من كانوا يخرجون برسائله إلى الملوك والأمراء الأجانب والعرب وهم يتكلمون^(٤) لغتهم ، وغير هؤلاء وأولئك كان هناك كثيرون كتبوا بين يديه فأسقط ذكرهم لأنهم لم يداوموا الكتابة معه ، وإذا كنا رأينا كل هؤلاء حول شخص واحد ، وإن كان عظيماً ، فما بالك بأعدادهم ككل ، وما نحسب أن جميع كتّاب مكة أسلموا وما

(١) (الخرص) الثمار وهي لا تزال على الأشجار والنخيل .

(٢) أحسبك تتأكد هنا إلى ما أشرت إليه آنفاً .

(٣) لم يذكر المسعودي ولا الجهشياري كتابة الأخماس بيد أي لقيته أثناء بحثي عن الكتبة المكين واليبريين

وسأذكره وسأذكر المرجع في موضع قادم .

(٤) ذكر هذا ابن سعد وابن الأثير وستلقاه تواتراً .

نحسب أنهم جميعاً هاجروا إلى المدينة ليكونوا دون النبي ﷺ .

فهل هذا شأن من كانت الكتابة فيهم قليلة . ولكي ترى مزيداً وعظيماً من الأثر الكتابي وأهميته فيهم وفي العرب بما لا يدع شكاً بأن الكتابة كانت شائعة بينهم أقدم إليك جملة ما كتبه النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء العرب والأجانب وما كتبه لزعماء البلاد والقبائل العربية وغيرهم وما كتبه للوفود التي وفدت عليه ، ثم أقدم إليك جملة ما جاء في القرآن العظيم من ذكر القراءة والكتابة ، ثم الجانب الأكبر مما تكاتب به الصحابة حتى وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ●

جملة ما كتبه النبي ﷺ

يذكر ابن سعد في (طبقاته) في باب ذكر بعثة النبي ﷺ الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتبه للعرب وغيرهم يقول : لما رجع النبي ﷺ من الحديبية في ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كُتُبا ، فقليل له : إن الملوك لا يقرءون كتاباً إلا مختوماً ، فاتخذ النبي ﷺ يومئذ خاتماً من فضة فصه منه ونقشه ثلاثة أسطر (محمد رسول الله) وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد ، وذلك في المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم ، فكان أول رسول بعثه النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي وكتب إليه كتابين .

وبعث دحية بن خليفة الكلبي . وهو أحد الستة إلى قيصر يدعوهم إلى الإسلام وكتب معه كتاباً .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي وهو أحد الستة إلى كسرى يدعوهم إلى الإسلام وكتب معه كتاباً .

وبعث شجاع بن وهب الأسدي وهو أحد الستة إلى الحارث بن أبي شمر^(١) يدعوهم إلى الإسلام وكتب معه كتاباً ، قال شجاع فأتيت إليه بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطف لقيصر ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله إليه ، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج في يوم كذا وكذا وجعل حاجبه يسألني (وكان رومياً اسمه مري) عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، فكنت أحدثه عن صفته وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول : إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه فأنا أؤمن به وأصدقه وأخاف من الحارث أن يقتلني ، وكان يكرمني ويحسن إليّ ، وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على

(١) اعلم أن الرسائل التي سأذكر مضمونها سيكون فيه أو في طرف منه شيء تحدثت به أو سأحدث ، والذي يعني في هذه الرسالة هو قراءة الحارث لها ، ثم قراءة فروة بن عمرو وكتابه إلى النبي ، وكل من الرجلين كان عاملاً للروم ، وكلاهما يحيا حياة أقرب إلى الرومية ، لكن هذا لم ينل من عروبتها والحرص على لغتها ، ولعلك تذكر حديثي عن هذا في الفصل الذي عنى أثر غسان التعليمي . وسترى في رسالة ملكي عمان (عبد جيفر) اللذين هما من أصل يمني أنه لم يكن للكتابة اليمنية القديمة إلا الأثر الجاني ، بل ستأكد من هذا من خلال رسائل النبي إلى رؤساء اليمنيات وهي كثيرة .

رأسه ، فأذن لى عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به وقال : من يتزع منى ملكى ، أنا سائر إليه ولو كان باليمن جثته ، على بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ثم قال أخبر صاحبك ما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبره وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : لا تسر إليه والله عنه ووافنى بآلها ، فلما جاءه جواب كتابه دعانى وقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ، فقلت : غداً ، فأمر لى بمائة مثقال ذهب ، كذلك وصلنى مرى وأمر لى بنفقة وكسوة وقال أقرئ النبى السلام ، فقدمت على النبى ﷺ فأخبرته فقال : صدق مرى ، ومات الحارث عام الفتح .

قالوا : وكان فروة بن عمرو الجذامى عاملاً لقيصر على (عمان) من أرض البلقاء فلم يكتب إليه رسول الله ، فأسلم فروة وكتب إلى النبى بإسلامه وأهدى له وبعث من عنده رسولاً من قومه يقال مسعود بن سعد فقرأ رسول الله كتابه وأجاز مسعوداً بخمسمائة درهم .

قالوا وبعث سليط بن عمرو العامرى وهو أحد الستة إلى هوزة بن على يدعوه وكتب معه كتاباً ، فقدم عليه فأنزله وحباه وقرأ كتاب النبى ﷺ ورد رداً دون رد وكتب إلى النبى : ما أحسن^(١) ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليط بن عمرو بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر ، فقدم بهذا كله على النبى ﷺ وأخبره عنه بما قال ، وقرأ كتابه وقال : لو سألتنى سيابة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه . قالوا وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص (ر) فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابنى الجنلدى ، وهما من الأزد ، والملك منهما جيفر ، يدعوهما إلى الإسلام ، وكتب معه إليهما كتاباً وختمه ، قال عمرو : فلما قدمت عمان عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسلمهما خلقاً ، فقلت إنى رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى أكبر منى والمقدم على بالملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، فمكثت أياماً ببابه ، ثم دعانى فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب مختوماً ، ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، فقال : دعنى يومى هذا وأرجع إلى غدا ، فلما كان الغد رجعت إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكت رجلاً ما فى يدى ، قلت إنى خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجى أصبح فأرسل إلى ، فدخلت عليه فأجاب الإسلام هو وأخوه وصدقاً بالنبى ﷺ وخلياً بينى وبين الصدقة وبين الحكم فى الذى بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم وردتها فى فقرائهم ، فلم أزل مقيماً فيهم

(١) (هوزة بن على) كان رئيس اليمامة حينئذ .

حتى بلغنا وفاة الرسول ﷺ ، وكان عمرو آخر الستة .

قالوا : وبعث رسول الله ﷺ العلاء الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعو إلى الإسلام وكتب إليه كتاباً ، فكتب إلى الرسول ﷺ بإسلامه وتصديقه ، وإنى قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرض مجوس ويهود فأخذت إلى فى ذلك أمرك فكتب إليه النبى : إنك مهما تُصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية ، وكتب النبى إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية وبان لا تنكح نسأؤهم ولا تؤكل ذبائحهم ، وكان الرسول ﷺ بعث أبا هريرة مع العلاء بن الحضرمي ، وكتب النبى للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والأموال ، فقرأ العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم^(١) .

وكتب إلى أهل اليمن كتاباً ، وكتب إلى عدة من أهل اليمن ، منهم : الحارث بن عبد كلال ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، ونعمان قيل ذى يزن ، ومعاfer ، وهمدان ، وزُرعة .
وكتب إلى بنى عمرو من حمير وكتب إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعو إلى الإسلام ، فأسلم جبلة وكتب بإسلامه إلى النبى ﷺ .

وكتب إلى معدى كرب بن أبرهة . وكتب إلى أساقفة لجران ولبنى الحارث . وكتب لربيعة بن ذى مرحب الحضرمي وإخوته ، وكتب لمن أسلم من حدَس ، ومن لحم ، وكتب لخالد بن ضماد الأزدي ، وكتب لعمرو بن حزم حيث بعثه إلى اليمن ، وكتب لنعيم بن أوس أخى نعيم ، وكتب للحصين بن أوس الأسلمي ، وكتب لقروة ولبنى قُروة بن عبد الله بن أبى لجيح النبهانيّين ، وكتب لبنى الضباب من بنى الحارث بن كعب ، وكتب لبنى زياد بن الحارث الحارثيين ، وكتب ليزيد بن الطفيل الحارثي ، وكتب ليثى القنان بن ثعلبة من بنى الحارث ، وكتب ليزيد بن المحجل الحارثي ، وكتب لقيس بن الحصين ذى الغصّة ، وكتب لبنى قنان بن يزيد الحارثيين ، وكتب لعاصم بن الحارث الحارثي ، وكتب لبنى معلوية بن جرول الطائيين ، وكتب لعامر بن الأسود بن عامر بن جويين الطائي ، وكتب لبنى جويين الطائيين ، وكتب لبنى معن الطائيين ، وكتب لبنى أسد ، وكتب لجنادة الأزدي ، وكتب إلى سعد هُذيم من قضاعة ، وكتب لبنى زُرعة وبنى الربعة من جهينة .

وكتب لبنى جُعيل من بلس ، وشهد العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان وأبو سفيان بن حرب ، وكتب لأسلم من خزاعة ، وكتب لعوسجة بن حرملة الجهيني ، وكتب

(١) ذكرت مضمون هذه الرسائل لأنها موصولة عند ابن سعد ، أى موصول بها ذكر (كتب وقرأ) وهو ما يعيننا .

لبنى شنج من جهينة ، وكتب لبنى الجرْمُز بن ربيعة وهم من جهينة، وكتب لعمر بن معبد الجهنى وبنى الحُرقة من جهينة وبنى الجرْمُز، وكتب لبلال بن الحارث المزنى، وكتب لبديل وبُسر وسروات بنى عمرو، وكتب للعداء بن خالد بن هوذة ومن تبعه من عامر بن عكرمة.

وكتب لمسيلمة ، وكتب إليه مسيلمة ، فعاوده النبی ﷺ بمكتوب ثانٍ ، وكتب لسلمة بن مالك بن أبى عامر السلمى من بنى عامر من بنى حارثة ، وكتب للعباس بن مرداس السلمى ، وكتب لهوذة بن نُبَيْشة السلمى ، وكتب للأجب رجل من بنى سليم ، وكتب لراشد بن عبد السلمى ، وكتب لحرام بن عبد عوف من بنى سليم ، وكتب لنعيم بن مسعود بن رُخيلة ، وكتب لجميل بن رزام العدوى ، وكتب لحصين بن نضلة الأسدى ، وكتب لبنى غفار ، وكتب لبنى ضمرة بن بكر ، وكتب إلى الهلال صاحب البحرين ، وكتب إلى إسيخت بن عبد الله صاحب هجر ، وكتب إلى أهل هجر ، وكتب إلى المنذر بن ساوى كتابين ، وكتب إلى العلاء الحضرمى كتابين ، وكتب إلى ضغاطر الأسقف ، وكتب إلى بنى جنبه وهم يهود بمقنا ، وكتب إلى أهل مقنا ، وكتب إلى يوحنا بن روبة وسروات أهله أئمة ، وكتب لجُمَاع كانوا فى جبل تهامة قد^(١) غصبوا المائة من كنانة ، وكتب لبنى غاديا وهم قوم من يهود ، وكتب لبنى عريض يهود أيضاً ، وكتب لبنى زهير بن أقيس حى من عُكْل ، وكتب إلى أبى ظبيان الأزدى من غامد ، وكتب لحبيب بن عمرو أخى بنى أجا ، وكتب للوليد بن جابر بن ظالم ، وكتب إلى سمعان بن عمرو بن قُرَيط القرنى ، وكتب إلى بكر بن وائل ، وكتب لشعير بن عداء ، وكتب إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير : سلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته ، قالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى الله ثالث ثلاثة عيسى ابن الله ، وبعث هذا المكتوب مع عياش بن أبى ربيعة المخزومى وقال : إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح ثم تطهر فأحسن طهورك وصل ركعتين وسل الله النجاح والقبول واستعد بالله وخذ كتابي يمينك وادفعه بيمينك فى أيمنهم ، فإنهم قابلون واقرأ عليهم : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) . فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتیک حجة إلا دُحضت ولا كتاب زُخرف إلا ذهب نوره وهم قارئون عليك فإذا وطنوا فقل ترجموا^(٢) ، وكتب إلى عبد القيس ، وكتب إلى أقيال حضرموت وعظمائهم ، زُورعة وقهد والبتسى والبحيرى

(١) ألا تستوفك كتابة النبی (ص) لهؤلاء ، وتنتظر أثر الكتابة فيهم .

(٢) أحسبك رأيت أن جميع المكاتبات التى كانت بين النبی واليمنيين سواء كانوا باليمن أو خارجه لم يظهر بها الاثر الجنوى ، وقد رزيت أنه أثر داخلى من خلال قول النبی : وهم قارئون عليك فإذا وطنوا فقل ترجموا .

وحجر وريبعة وعبد كلال ، وكتب إلى نفاثة بن فروة الدؤلى ملك السماوة ، وكتب إلى عُدرة ، وكتب لمطرف بن الكاهن الباهلى ، وكتب إلى نهشل بن مالك الوائلى من باهلة ، وكتب لثقيف ، وكتب لسعيد بن سفيان الرُّعلى ، وكتب لعتبة بن فرقد ، وكتب لسلمة بن مالك السلمى ، وكتب لبنى جناب من كلب ، وكتب لمهرى بن الأبيض، كتبه محمد ^(١) بن مسلمة ، وكتب لخنعم ، وكتب لبارق من الأزد ، وكتب لوائل بن حجر لما أراد الشخصوص إلى بلاده ، فقال النبى ﷺ : اكتب له يا معاوية إلى الأقبال العباهلة ، وكتب لأهل لجران : هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لأهل لجران أنه كان له عليهم حكمه فى كل ثمرة صفراء ، أو بيضاء ، أو سوداء ، أو رقيق فأفضلَ عليهم، وترك ذلك كله على ألفى حُلّة من حلل الأوائى فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة، كل حُلّة أوقية فما زادت حُلّل الخراج أو نقصت على الأوائى فبالحساب ، وما قبضوا من دروع، أو خيل، أو ركاب، أو عرض أخذ منهم فبالحساب وعلى لجران مائة رسل عشرين يوماً فدون ذلك، ولا تحبس رسلى فوق شهر وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان باليمن كيّد وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلى حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدتهم ويبيعهم وصلواتهم لا يغيروا أسقفاً عن أسقفيته ولا راهباً عن رهبانيته ولا وقفاً عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس رباً ولا دم جاهلية ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين لنجران ومن أكل رباً من قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبى أبداً حتى يأتى الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف النصرى والأقرع بن حابس والمستورد بن عمرو أخو بللى والمغيرة بن شعبة وعامر مولى أبى بكر .

ذكر وفادات العرب على النبى

انتهى ابن سعد من ذكر سفراء النبى برسائله إلى الملوك الأجانب والعرب ، ثم من مكاتيبه إلى العرب وغيرهم ، ثم أعقبه بهذا الفصل وهو (الوفادات العربية) وسأقدم إليك الذى تخلله ذكر الكتابة .

(وفد عقيل) هم أربعة رجال أقطعهم الرسول (ص) قطيعة تسمى عقيل بنى عقيل وهى أرض

(١) اعلم أن ذكر الكاتب أو الشاهد على المکتوب سوف أستشهد به فى الفصل الذى خصصته لحصر الكتب من المكين واليبريين ، الذى سيأتى قبل نهاية الكتاب .

فيها نحل وعيون ، وكتب لهم ^(١) بها كتاباً .

(وفد جعدة) وكتب للرفاد بن عمرو بن جعدة ضيعة بالفالج .

(وفد قشير بن كعب) وكتب لثور بن سلمة بن قشير قطيعة (لم يسمها أو يذكر موقعها) .

(وفد بني البكاء) وكتب للفجيع بن عبد الله بن جندح كتاباً .

(وفد باهلة) ذكرت فيه الكتابة لكن المكتوب له ذكر في الفصل السابق وهو مطرف بن الكاهن الباهلي .

(وفد سليم) قدم على النبي (ص) رجل من بني سليم يقال له قيس بن نسيبة فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله ، ودعاه الرسول إلى الإسلام فأسلم ، ورجع إلى قومه فقال : سمعت ترجمة الروم وهينة الفرس ، وأشعار العرب ، وكهانة الكاهن ، وكلام مقاول حمير فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم .

(وفود عبد القيس) وكتب إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم .

(وفد شيان) قال أخبرنا عفان بن مسلم ، أخبرنا عبد الله بن حسان أخو بني كعب بلعبر أنه حدثته جدته صفية بنت علية ودحية بنت علية عن حديث قيلة بنت مخزومة وكانتا ربيبتها أنها قالت : خرجت إلى أخت لي ناكح في بني شيان أبتغي الصحابة إلى رسول الله (ص) فبينما أنا عندها ليلة من ليالي تحسبني نائمة إذ جاء زوجها من السامر فقال : وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق ، فقالت : من هو قال : حريث بن حسان الشيباني غادياً وفد بكر بن وائل إلى رسول الله ، وفي الصباح غدوت إلى جملي فشددت عليه ثم نشدت عنه فوجدته غير بعيد فسألته الصعبة ، فقال : نعم وكرامة ، وكانت ركبهم مناخة فخرجت معه صاحب صدق ، حتى قدمنا على رسول الله وهو يصلي بالناس الغداة ، وقد أقيمت حين انشق الفجر والنجوم شابكة في السماء ، والرجال لا تكاد تتعارف مع ظلمة الليل ، فصففت مع الرجال وكنت امرأة حديثة عهد بجاهلية ، فقال لي الرجل الذي يليني من الصف : امرأة أنت أم رجل ، فقلت لا بل امرأة ، فقال : إنك كدت تفتنيني ، فصلي مع النساء وراءك ، وإذا بصف من النساء قد حدثت عند الحجرات لم أكن رأيته حين دخلت ، فكنت فيهن حتى إذا طلعت الشمس دنوت فجعلت إذا رأيت رجلاً ذا رُوءاً وإذا قشر طمح إليه بصرى لأرى رسول الله (ص) ، فوق الناس ، حتى رجل وقد ارتفعت

(١) اعلم أن كل مكتوب كان يكتبه النبي في أي غرض كان يعطى نسخه للمكتوب له .

الشمس فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال الرسول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . وكان على الرسول أسمال ملبّتين كانتا بزعفران ومعه عسيب نخلة مقشور غير خوصتين من أعلاه وهو قاعد القرفصاء ، فلما رأيت رسول الله (ص) أرعدت من الفرق ، فقال جليسه : يا رسول الله أرعدت المسكينة ، فقال الرسول : يا مسكينة عليك السكينة ، فلما قالها أدخل بقلبي الطمأنينة ، وتقدم صاحبي أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال يا رسول الله : اكتب بيننا وبين بني تميم بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور ، فقال النبي (ص) : يا غلام اكتب له بالدهناء ، فلما رأيته أمر بأن يكتب له بها شخص بي وهى وطنى ودارى فقلت : يا رسول الله إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك . فقال النبي : أمسك ^(١) يا غلام ، صدقت المسكينة . (وفادات أهل اليمن)^(٢) وفد طيئ، أقطع النبي زيد الخيل قطيعة فيد وأرضين وكتب بذلك كتاباً.

(وفد جعفي) وكتب لقيس بن سلمة كتاباً يقول : كتاب من محمد رسول الله لقيس بن سلمة بن شرحبيل : إني استعملتك على مُرآن وموآليها وحريم وموآليها والكلاب وموآليها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدق ماله وصفاه . (الكلاب) هى أود ، وزبيد ، وجزء بن سعد العشيرة ، وزيد الله بن سعد ، وعائد الله بن سعد ، وبنو صلاءة من بنى الحارث بن كعب .

(وفد مُراد) وكتب لفروة بن مُسيك بالرياسة على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد على الصدقات . (وفد جرم) وكتب لرجلين جرميين هما الأصقع بن شريح بن حريم والآخر هوذة بن عمرو بن يزيد كتاباً .

(وفد كلب) وكتب لحارثة بن قطن كتاباً لطوائف كلب .

(وفد همدان) وكتب لقيس بن مالك بن سعد بن لائى عهداً على الهمدانيين بأن يسمعوا له ويطيعوا .

(وفد الدارين) وكانوا عشرة نفر كتب لهم وصية بحاد مائة وسق بخير فى الكتبية جارية عليهم . (وفد خثعم) وكتب لعنّعث بن زحر وأنس بن مدرك ونفر من خثعم كتاباً .

(١) أنت تعلم أن الذى يعنيننا فى كل هذا عن قبيلة قول الرسول (اكتب له يا غلام ، أمسك يا غلام) فهو مما استشهد على أنه كان هناك كثيرون كتبوا وضاع ذكرهم .

(٢) هكذا أورده ابن سعد ونقلته .

(وفد بارق) وكتب كتاباً لوفد بارق .

(وفد حُمالة والحُدَّان) وكتب لعبد الله بن علس الشمالى ومُسْلِيَّة بن هِرَّان الحُدَّانى كتاباً بفروض الصدقة فى أموالهم . كتبه ثابت بن قيس وشهد فيه سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة .

(وفد أسلم) كتب لهم كتاباً فيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى ، كتبه ثابت بن قيس وشهد فيه أبو عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب .

(وفد جذام) وكتب لرفاعة بن زيد بن عمير الجُدَامى كتاباً .

(وفد مهرة) دُكرت كتابته فى الفصل السابق .

(وفد حمير) دُكرت كتابته فى الفصل السابق .

(وفد نجران) دُكرت كتابته فى الفصل السابق .

ألا رأيت جملة ما كتبه النبى (ص) ههنا ، وإن نحن قدرنا كتاباً واحداً لكل مبعوث إليه أو وافد رأيناه شيئاً عظيماً يدل على الرقى والأثر الكتابى فيهم ، أما غالب مضامين هذه المكاتيب فكانت تشمل تولية أحد الوافدين الذين يبايعون الرسول (ص) الرياسة فى قومه أو غيرهم ، وتولية آخر الصدقات والجزية ، وما يكون على هذا النحو مما يتطلبه ذلك العصر ، وكانت تشمل الأمان والإقطاع والوصية والموادعة وغيره ، وقد بدا لك طرف من هذا فى المكاتيب التى دُكر مضمونها . ولعلك ترانى غير معنى ههنا بذكر خصائص^(١) هذه المكاتيب إنما معنى بأن أثبت لك أن الرسول (ص) تعامل مع العرب وسواهم بأرجاء الجزيرة العربية وخارجها بالوثائق الكتابية المختومة بخاتمته ، كذلك تعامل أمراؤه فى حياته وبعد رحيله ، وأحسبك تذكر أننى أشرت فى موضع سابق أن جامعة القاهرة أقامت معرضاً لبعض هذه الوثائق وأنها توجد بمركز بحوث ودراسات التراث الإسلامى ●

(١) إن شئت الوقوف عليها فهى بالجزء الأول من (الطبقات الكبرى) لابن سعد ، من أول صفحة ٢٥٨ حتى ٢٩٠ فى باب ذكر بعثة الرسول الرسل بكتبه وما كتب للعرب وغيرهم ، ثم من صفحة ٢٩١ حتى ٣٥٧ فى ذكر (الوفادات) .

ما حواه القرآن من ذكر القراءة والكتابة

وخير وثيقة بين أيدينا القرآن العظيم الذى حوت سورة وزخرت بتسعة وأربعين وأربعمائة (٤٤٩) ذكر للكتابة والقراءة ومشتقاتهما ومرادفاتهما ، وأدواتها أقدمها إليك وما القرآن عنك بعيد، وسأذكره بترتيب السور وسأضع رقم الآية عند نهايتها كما هو شأنها فى القرآن ، وقد أكتفى من الآية بما يكون فى حيزه ذكر الكتابة والقراءة .

البقرة

(ذلك الكتاب لا ريب فيه ٢) (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ٢٤)
(وإذ آتينا موسى الكتاب ٥٣) (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ٧٨) ،
(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ٧٩) ، (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ٨٥) ،
(ولقد آتينا موسى الكتاب ٨٧) ، (ولما جاءهم كتاب ٨٩) ، (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ١٠١) ، (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ١٠٥) ، (ود كثير من أهل الكتاب ١٠٩) ، (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ١١٣) ، (والذين آتيناهم الكتاب ١٢١) ، (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو آياتك ويعلمهم عليهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ١٢٩) ، (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ١٤٤) ، (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ١٤٥) ، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ١٤٦) ، (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ١٥١) ، (من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ١٥٩) ، (إن الذين يكتُمون ما أنزل الله فى الكتاب ١٧٤) ، (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق . وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد ١٧٦) ، (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ١٧٧) ، (يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص فى القتلى ١٧٨) ، (كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية ١٨٠) ، (وابتغوا ما كتب الله

لكم ١٨٧) ، (وأنزل معهم الكتاب ٢١٣) ، (كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم ٢١٦) ، (واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ٢٣١) ، (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ٢٣٥) ، (قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلما كُتِبَ عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ٢٤٦) ، (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . وليكتب بينكم كاتب بالعدل . ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله . فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئاً . فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ؛ أن تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا . ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها . وأشهدوا إذا تابعتهم . ولا يضار كاتب ولا شهيد . وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم . واتقوا الله ويعلمكم الله . والله بكل شيء عليم ٢٨٢) ، (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ٢٨٥) .

آل عمران

(ونزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه . وأنزل التوراة^(١) والإنجيل ٣) ، (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ٧) ، (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب ١٩) ، (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ٢٠) ، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ٢٣) ، (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ٤٤) ، (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ٤٨) ، (ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ٥٠) ، (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ٥٣) ، (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ٦٤) ، (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ٦٥) ، (ودت طائفة من أهل الكتاب ٦٩) ، (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ٧٠) ، (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ٧١) ،

(١) المعنى بهما (الكتب) وهو الأقرب إلى أذهان الناس ، أى المعنى الاصطلاحي وليس اللغوي . إذ إن الإنجيل معناه (البشارة) وهو لفظ يوناني لكنه معروف لدينا بأنه كتاب النصارى وعلى هذا النحو ورد في القرآن ، وعنى التوراة بأنه كتاب موسى وهو لفظ عبري .

(وقالت طائفة من أهل الكتاب ٧٢)، (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ٧٥)، (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ٧٨)، (وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ٧٩)، (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ٩٣)، (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ٩٨)، (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله ٩٩)، (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ١٠٠)، (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ١١٠)، (ومن أهل الكتاب أمة قائمة ١١٣)، (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ١١٩)، (كتباً مؤجلاً ١٤٥)، (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ١٦٤)، (سنكتب ما قالوا ١٨١)، (فإن كذبوك فقد كُذِبَ رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ١٨٤)، (لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ١٨٦)، (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ١٨٧)، (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ١٩٩).

النساء

(كتاب الله عليكم ٢٤)، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ٤٤)، (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ٤٦)، (يا أيها الذين أوتوا الكتاب ٤٧)، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ٥١)، (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب ٥٤)، (ولو أن كتبنا عليهم ٦٦)، (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ٧٧)، (والله يكتب ما يبيتون ٨١)، (أفلا يتدبرون القرآن ٨٢)، (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ١٠٣)، (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ١٠٥)، (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ١١٧)، (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ١٢٣)، (قل الله يفتيكهم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في ينأى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن ١٢٧)، (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ١٣١)، (يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب

الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً (١٣٦) ، (وقد نزل عليكم فى الكتاب ١٤٠) ، (يسألك أهل الكتاب أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء ١٥٣) ، (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ١٧١) .

المائدة

(وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ٥) ، (يحرفون الكلم عن مواضعه ١٣) ، (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ١٥) ، (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ١٩) ، (من أجل ذلك كتبنا ٣٢) ، (يحرفون الكلم من بعد مواضعه ٤١) ، (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة ٤٣) ، (إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُخفّظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ٤٤) ، (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ٤٥) ، (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ٤٦) ، (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ٤٧) ، (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ٤٨) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ٥٧) ، (قل يا أهل الكتاب ٥٩) ، (ولو أن أهل الكتاب ٦٥) ، (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ٦٦) ، (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ٦٨) ، (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ٧٧) ، (يقولون ربنا آتينا فاكثبتنا مع الشاهدين ٨٣) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ١٠١) ، (وإذ علمتكم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ١١٠) .

الأنعام

(ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس ٧) ، (كتب على نفسه الرحمة ١٢) ، (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذرکم به ومن بلغ ١٩) ، (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ٢٠) ، (ما فرطنا فى الكتاب من شيء ٣٨) ، (كتب ربكم على نفسه الرحمة ٥٤) ، (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ٥٩) ، (أولئك الذين

آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ٨٩) ، (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس
تجعلونه قراطيس ٩١) ، (وهذا كتاب أنزلناه مباركاً ٩٢) ، (أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل
إليك الكتاب مفصلاً . والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ١١٤) ، (ثم آتينا
موسى الكتاب ١٥٤) ، (وهذا كتاب أنزلناه مباركاً فاتبعوه ١٥٥) ، (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على
طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ١٥٦) ، (أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا
أهدى منهم ١٥٧) .

الأعراف

(كتاب أنزل إليك ٢) ، (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ٣٧) ، (ولقد جئناهم بكتاب
فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ٥٢) ، (وكتبنا له فى الألواح ١٤٥) ، (وألقى الألواح
١٥٠) ، (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم
يرهبون ١٥٤) ، (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . إننا هدىنا إليك . قال عذابي
أصيب به من أشاء . ورحمتى وسعت كل شئ . فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم
بآياتنا يؤمنون ١٥٦) ، (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم
فى التوراة والإنجيل ١٥٧) ، (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرضاً هذا الأدنى
ويقولون سيغفر لنا . وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا
يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ١٦٩) ، (والذين يُمسكون بالكتاب وأقاموا
الصلاة ١٧٠) ، (إنَّ ولىَّ الله الذى نزل الكتاب . وهو يتولى الصالحين ١٩٦) ، (وإذا قرئ القرآن
فاستمعوا له ٢١٤) .

الأنفال

(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٨) ، (وأولوا الأرحام بعضهم
أولى ببعض فى كتاب الله ٧٥) .

التوبة

(من الذين أوتوا الكتاب ٢٩) ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله
يوم خلق السموات والأرض ٣٦) ، (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ٥١) ، (وعداً عليه
حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ١١١) ، (إلا كُتب لهم به عمل صالح ١٢٠) ، (إلا كُتب لهم

ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون (١٢١) .

يونس

(الر تلك آيات الكتاب الحكيم ١) ، (انتِ بقرآن غير هذا أو بدله ١٥) ، (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ٢١) ، (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٣٧) ، (وقل فأتوا بسورة مثله ٣٨) ، (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ٦١) ، (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ٩٤) .

هود

(الر تلك آيات الكتاب ١) ، (كل في كتاب مبين ٦) ، (قل فأتوا بعشر سور مثله) ، (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ١٧) ، (ولقد اتينا موسى الكتاب ١١٠) .

يوسف

(الر تلك آيات الكتاب المبين ١) ، (إننا أنزلنا قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ٢) .

الرعد

(الر تلك آيات الكتاب ١) ، (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون ٣٦) ، (لكل أجل كتاب ٣٨) ، (وعنده أم الكتاب ٤٣) .

إبراهيم

(الر كتاب أنزلناه ١)

الحجر

(الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ١) ، (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ٣) .

النحل

(بالبينات والزبر ٤٤) ، (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم ٦٤) ، (ونزلنا عليك الكتاب تبينانا ٨٩) ، (فإذا قرأت القرآن ٩٨) ، (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي

يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان^(١) عربى مبين (١٠٣) .

الإسراء

(وأتينا موسى الكتاب ٢) ، (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ٤) ، (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ٩) ، (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ١٣) ، (اقرأ كتابك ١٤) ، (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ٤١) ، (وإذا قرأت القرآن ٤٥) ، (وإذا ذكرت ربك فى القرآن ٤٦) ، (وأتينا داود زبوراً ٥٥) ، (كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ٥٨) ، (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً ٧١) ، (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ٧٨) ، (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ٨٨) ، (أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ٩٣) ، (وقرآناً فرقناه لنعرفه على الناس ١٠٦) .

الكهف

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ١) ، (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ٩) ، (واتل ما أوحى من كتاب ربك ٢٧) ، (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه يقولون يا ويلنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ٤٨) ، (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ٥٤) .

مريم

(يا يحيى خذ الكتاب بقوة ١٥) ، (واذكر فى الكتاب مريم ١٦) ، (قال إني عبد الله أنانى الكتاب ٣٠) ، (واذكر فى الكتاب إبراهيم ٤٠) ، (واذكر فى الكتاب موسى ٥١) ، (واذكر فى الكتاب إسماعيل ٥٤) ، (واذكر فى الكتاب إدريس ٥٦) ، (كلا سنكتب ما يقول ٧٩) .

طه

(ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ٢) ، (قال علمها عند ربي فى كتاب ٥٢) ، (كذلك أنزلناه قرآناً عربياً ١١٣) ، (ولا تعجل بالقرآن ١٨٤) .

(١) المقصود به (القرآن) ، وسبب مجيء الآية أن القرشيين المناوئين لدعوة النبى (ص) كانوا يقولون إنه يختلف إلى رجل رومى نصرانى ممن كانوا يعيشون بمكة ، وكان هذا الرجل معروفاً عندهم بإلمامه بالكتاب المقدس ، فقالوا إنه يأخذ عنه ، فجاءت الآية الكريمة تنفى هذا عن النبى (ص) . وتفسيرها : أن هذا الرجل الذى تتهمون النبى بالنقل عنه أعجمى ذو رطنة أجنبية وهذا القرآن يأتيكم بلسان عربى خالص .

الأنبياء

(لقد أنزلنا إليكم كتاباً ١٠) ، (وإنا له كاتبون ٩٤) ، (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ١٠٤) ، (ولقد كتبنا فى الزبور ١٠٦) .

الحج

(كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ٤) ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ٨) ، (إن ذلك فى كتاب ٧٠) .

المؤمنون

(ولقد آتينا موسى الكتاب ٤٩) ، (ولدينا كتاب ينطق بالحق ٦٢) .

النور

(والذين يبتغون الكتاب^(١) مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ٣٣) .

الفرقان

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ٢) .

الشعراء

(تلك آيات الكتاب المبين ٢) (وإنه لفى زُبر الأولين ١٩٦) ، (فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ١٩٩) .

النمل

(طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين ١) ، (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ٦) ، (أذهب بكتابتى هذا ٢٨) ، (قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم ٢٩) ، (قال الذى عنده علم من الكتاب ٤٠) ، (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين ٧٥) ، (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ٧٦) ، (وأن أنزلوا القرآن ٩٢) .

القصص

(تلك آيات الكتاب المبين ٢) ، (ولقد آتينا موسى الكتاب ٤٣) ، (قل فاتوا بكتاب من عند الله ٤٩) ، (والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ٥٢) ، (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ٨٥) ، (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ٨٦) .

(١) المراد (الكتابة) ، والمكاتبه تحدث فيها منذ قليل .

العنكبوت

(ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ٢٧) ، (واتل^(١) ما أوحى إليك من الكتاب ٤٥) ، (ولا تجادلوا أهل الكتاب ٤٦) ، (كذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ٤٧) ، (وما كنت تتلو قبلة من كتاب ولا تخطه يمينك ٤٨) ، (أو لم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب ٥١) .

الروم

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ٥٦) ، (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ٥٨) .

لقمان

(تلك آيات الكتاب الحكيم ٢) ، (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ٢٠) .

السجدة

(تنزيل الكتاب لا ريب فيه ٢) ، (ولقد آتينا موسى الكتاب ٣) .

الأحزاب

(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً . كان ذلك في الكتاب مسطوراً ٦) ، (وأُنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ٢٦) .

سبا

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها ٤٤)

فاطر

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ١١) ، (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من

(١) أحسبك تلتفت إلى أن (التلاوة) قد تأتي عن تلقين وحفظ وقد تأتي عن قراءة ، كذلك (الترتيل) وما يشبه هذا مما تركته (كآلية) مثلاً فهي النص المكتوب قرآنياً ، وهي البيئة والغاية والعلامة والدليل لغوياً وهو أصلها . ولو أني أضفت التلاوة على الأقل - وإجازته أكبر من عدمها - لزداد العدد الذي بين يديك زيادة كبيرة .

قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير (٢٥) ، (إن الذين يتلون كتاب الله (٢٩) ،
(والذى أوحينا إليك من الكتاب (٣١) ، (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا (٣٢) ، (أم
آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه (٤٠) .

يس

(والقرآن الحكيم (٢) ، (إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم (١٢) ، (وما علمناه الشعر
وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩) .

الصفافات

(وآتيناهم الكتاب المبين (١١٧) ، (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين (١٥٧) .

ص

(وقالوا ربنا عجل لنا قسطاً قبل يوم الحساب (١٦) ، (كتاب أنزلناه إليك مبارك (٢٩) .

الزمر

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (١) ، (إنا أنزلنا الكتاب بالحق (٢) ، (والله نزل أحسن
الحديث كتاباً متشابهاً (٢٣) ، (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق (٤١) ، (وأشرقت الأرض بنور
ربها ووضع الكتاب (٦٩) .

غافر

(تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) ، (وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب (٥٣) .

فصلت

(كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً (٣) ، (وإنه لكتاب عزيز (٤١) ، (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا
لولا فصلت آياته (٤٤) ، (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه (٤٥) .

الشورى

(وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب (١٤) ، (قل آمنت بما أنزل من
كتاب (١٥) ، (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان (١٧) ، (وما كنت تدري ما الكتاب (٥٢) .

الزخرف

(والكتاب المبين (٢) ، (إنا جعلناه قرآناً عربياً (٣) ، (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم (٤) ،

(ستكتب شهادتهم ١٩) ، (أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ٢١) .

الدخان

(والكتاب المبين ٢)

الجاثية

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ٢) ، (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ١٦) ، (وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تحزون ما كنتم تعملون ٢٨) ، (هذا كتابنا ينطق بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ٢٩) .

الأحقاف

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ٢) ، (اثنوني بكتاب من قبل هذا ٤) ، (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ١٢) ، (كتاباً أنزل من بعد ٣٠) .

محمد

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة ٢٠) ، (أفلا يتدبرون القرآن ٢٥) .

الفتح

(سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل ٢٩) .

ق

ق . والقرآن المجيد ١) ، (وعندنا كتاب حفيظ ٤) .

الطور

(والطور ، وكتاب مسطور في رق منشور ٣) .

النجم

(ألم ينبأ بما في صحف موسى ٣٦) .

القمر

(ولقد يسرنا القرآن ٣٢) ، (أم لكم براءة في الزبر ٤٣) ، (وكل شيء فعلوه في الزبر ٥٢) ، (وكل صغير وكبير مستطر ٥٣) .

الرحمن

(الرحمن ؛ علم القرآن ٢)

الواقعة

(وإنه لقرآن كريم (فى كتاب مكنون ٧٨) .

الحديد

(كالذين أوتوا الكتاب ١٦) ، (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب (٢٢) ، (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب ٢٥) ، (وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم (٢٧) ، (لئلا يعلم أهل الكتاب ٢٩) .

المجادلة

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ٢١) ، (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ٢٢) .

الحشر

(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ٢) ، (ولولا أن كتب عليهم الجلاء ٣) ، (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ١١) .

الصف

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من (التوراة ٦) .

الجمعة

(هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ٢) ، (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل حمار يحمل أسفاراً ٥) .

التحريم

(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ١٢) .

القلم

(ن والقلم وما يسطرون ١) ، (أم لكم كتاب فيه تلتسون ٣٧) .

الحاقة

(فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم أقرءوا كتابيه ١٩) ، (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ٢٥) .

المزمل

(أو زد عليه ورتل القرآن تزيلا) .

المدثر

(ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ٣١) .

القيامة

(إن علينا جمعه وقرآنه ١٧) ، (فإذا قرأنه فاتبع قرآنه) .

عبس

(فى صحف مكرمة ١٣) .

التكوير

(وإذا الصحف نشرت ١٠) .

الانفطار

(كراماً كاتبين ١١)

المطففين

(كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ٧) ، (كتاب مرقوم ٩) ، (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ١٨) ، (كتاب مرقوم ٢٠) .

الانشقاق

(فأما من أوتى كتابه بيمينه ٧) ، (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ١٠)

البروج

(بل هو قرآن مجيد ٢١) .

الأعلى

(إن هذا لفي الصحف الأولى ١٨) ، (صحف إبراهيم وموسى ١٩) .

العلق

(اقرأ باسم ربك الذي خلق ١) ، (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ٣) .

البيئة

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ١) ، (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ٢) ، (فيها كتب قيمة ٣) ، (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيئة ٤) ، (إن الذين كفروا من أهل الكتاب ٦) .

إيه ، أنحسب أن القرآن العظيم يخاطب أميين بكل هذا الذكر للكتابة والقراءة .. حاشا أن يتحدث القرآن بدون جدوى ! ●

غالب ما تكتب به الصحابة

مرّ بنا ما كتبه النبي (ص) وما جاء في (القرآن) من ذكر الكتابة والقراءة ، والآن أقدم إليك غالب ما تكتب به الصحابة (ر) حتى عصر الخليفة العادل عمر بن الخطاب (ر) وذلك لكي لا نبعد كثيراً عن العصر الذين يعنيها ، وأرجو ألا يظن البعض أنني ابتعدت إذ إن الذين سيمر بنا ذكرهم هم من المخضرمين .

يقول ابن الأثير ^(١) : لما مات النبي (ص) قدمت كتب أمرائه من كل مكان بانتقاض العرب عامة وخاصة ، ولما أخرج أبو بكر الأحد عشر قائداً لمحاربة المرتدين أخرج معهم أحد عشر رسولاً يحمل كلٌ منهم نسخة من كتاب كتبه ينذر فيه المرتدين .

ثم يأتي ذكر الرسائل مفرداً وجمعاً ، يقول :

كتب أبو بكر ^(٢) لامرئ القيس الكلبي .. وكتب خالد بن الوليد إلى معن بن حجاز .. وكتب حسان بن ثابت ^(٣) إلى الخليفة يشكو خالد بن الوليد .. وكتب أبو بكر إلى خالد .. وكتب عكرمة بن عمرو بن هشام إلى الخليفة .. وكتب الخليفة إلى عكرمة رداً على كتابه .. وكتب العلاء الحضرمي إلى من ثبت على إسلامه من أهل البحرين .

وفي ذكر ردة أهل عُمان كثرة المكاتبة بين عكرمة وجيفر وعبد وذى التاج لقيط بن مالك وحصين بن محصن الغلفاني وعرفجة البارقي .

وكتب عتاب بن أسيد إلى الخليفة يعرفه من ارتدّ في عمله .. وكتب إليه الخليفة .. وكتب الخليفة لوفد لجران بتجديد العهد .

وفي ذكر خبر ردة اليمن الثانية كتب الخليفة إلى عمرو ذى مران ، وكتب إلى سعيد ذى زود ،

(١) في تاريخه (الكامل) وغالب ما سأذكره في هذا الفصل من الجزءين الثاني والثالث منه .

(٢) سيكون شأنى في هذا كشائى في ذكر رسائل النبي (ص) . أى لا يعنى مضامين هذه الرسائل ، إنما يعنى تعاملهم الكتابى ، فإن شئت الوقوف عليها فقد أشرت إلى المرجع .

(٣) ديوانه طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . تحقيق سيد حسنين ومراجعة حسن كامل .

وكتب إلى ذى الكُلاع ، وكتب إلى حوشب بن ظالم ، وكتب لشهر ذى نيف يأمرهم بالتمسك بدينهم .. وكتب المهاجر بن أمية إلى الخليفة .. وكتب فيروز إلى الخليفة .

وفى ذكر حضرموت وكندة كتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقية الرسول فى الطريق .. وكتب الأشعث بن قيس ومعه تسعة آخرون كتاباً يطلبون فيه الأمان بعد أن خذلوا قومهم ، فقال لهم زياد بن ليلى : اكتبوا ما شئتم وأختمه لكم .

وفى ذكر خبر (دومة الجندل) وصل إلى خالد بن الوليد كتاب من امرئ القيس الكلبي .
وفى ذكر وقعة (مصيخ بنى البرشاء) يقول ابن الأثير :

وكان مع الهذيل عبد العزى أخو أوس مناة ولبيد بن جريز وكانا أسلما ومعهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما فقتلا .

وفى ذكر (فتوح الشام) كتب خالد بن سعيد إلى الخليفة .. وكتب الخليفة إليه رداً .. وكتب خالد بن الوليد إلى الخليفة .. وكتب الخليفة وهو فى فراش الموت آخر مكتوب له ، وهو خلافة عمر بن الخطاب .

وكانت هذه المكاتيب فى سنتين وبضعة أشهر هى فترة خلافة أبى بكر (ر) .

خلافة عمر

فى ذكر (فتح دمشق) كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر ، وكتب إليه الخليفة رداً ، ثم تراسلا بكتابين آخرين .

وفى ذكر (غزوة فحل) كتب أمراء الجند إلى عمر .

وفى ذكر (فتح بيسان وطبرية) كتب أبو عبيدة إلى عمر ، وفى هذا الحين كتب الخليفة يعزل خالد بن الوليد وتولية أبى عبيدة وكان أثناء حصارهم لدمشق .

وفى ذكر (خبر القادسية وملك يزيدجر) كتب المثني وباقي أمراء الجند إلى عمر ، وكتب إليهم جميعاً عمر .

وفى ذكر (ابتداء القادسية) كتب سعد بن أبى وقاص إلى الخليفة ، وكتب إليه الخليفة رداً ، ثم كتب إليه سعد بالفتح وبعدهد من قتل وجرح من المسلمين .. وكتب الخليفة إلى أمراء الشام بعدما جاءته منهم رسائل .. وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة فى نفر عنده شربوا الخمر ، وكتب إليه الخليفة

رداً فى هذا الأمر .

وفى ذكر (ولاية عتبة بن غزوان البصرة) ، كتب عتبة إلى عمر ، وكتب إليه الخليفة رداً ، ثم تراسلاً بكتابين آخرين .

وفى ذكر (سنة أربع عشرة) أمر الخليفة بالقيام فى شهر رمضان فى المساجد وكتب إلى الأمصار بذلك .

وفى ذكر (فتح حمص وبعبك) وغيرهما من مدن الشام كتب الخليفة إلى أبى عبيدة .

وفى ذكر (فتح قنسرين) ودخول هرقل القسطنطينية كتب عمر إلى أبى عبيدة .

وفى ذكر فتح قيسارية وحصار غزة) كتب الخليفة إلى يزيد بن أبى سفيان ، وكتب إلى أخيه معاوية .

وفى ذكر (فتح القدس) كتب عمرو بن العاص إلى أرطوبون وأرسل إليه من يتكلم الرومية ، ثم كتب إلى الخليفة بهذا . وفى هذه السنة كتب الخليفة إلى أمراء الجند أن يوافوه (بالجابية) فى يوم عاينه لهم ، وكتب لأهل القدس عهداً .

وفى ذكر (فروض العطاء وعمل الديوان) يقال لما استشار الخليفة مستشاريه وهم نفر من كبار الصحابة ، وسمع منهم ؛ رأى أن يعمل برأى الوليد بن هشام القريشى ويحاكى فى هذا الأمر ملوك الشام فيدون الديوان ويجند الجند وأمر أن يتولى هذا الأمر ثلاثة رجال من نساب قريش وهم : (جبير بن مطعم ، وعقيل بن أبى طالب ، ومخرمة بن نوفل) ، وقال لهم : اكتبوا الناس^(١) على حسب منزلتهم .

وفى ذكر (وقعة جلولاء وفتح حلوان) كتب سعد إلى الخليفة .. وكتب إليه الخليفة رداً .

وفى ذكر (فتح تكريت والموصل) كتب سعد إلى الخليفة به .. وكتب إليه الخليفة رداً .

وفى ذكر (ماتبدان) كتب سعد إلى الخليفة .. وكتب إليه الخليفة رداً .

وفى ذكر (فتح قرقيسيا) كتب سعد إلى الخليفة .. وكتب إليه عمر رداً .

وفى هذه السنة كتب الخليفة (التأريخ الهجرى) .

(١) نحسب أن أمراً كهذا لا يتم أبداً إلا إذا مرّ بمراحل كتابية ضخمة للمدنيين من رجال ونساء ، شيوخ وأطفال ، ثم للعامل الأساسى فيه وهو التجنيد النظامى المستحدث لديهم حيثئذ ، إذ روى أن يكون العطاء ذا جدوى ، وما كان يفوت الخليفة أن تنظر الحالة الاجتماعية للجندى وأسرته ، ثم بعد هذا تأتى المراحل الحسابية لتقدير العطاء عموماً وخصوصاً حسب المنزلة .. ولك أن تبلغنى أى أمة هى التى تنهض بأمر كهذا .

وفى ذكر (بناء الكوفة والبصرة) كتب حذيفة إلى الخليفة وفيها كتب عمرو بن مالك إلى سعد بن أبي وقاص ، وكتب الخليفة إلى سعد رداً على كتاب حذيفة وكتب إليه سعد فيه ، فعاوده الخليفة بمكتوب آخر . ولما نزل سعد بموقع الكوفة كتب إلى عمر .

وكتب إليه عمر رداً ، وكتب إلى عتبة وأهل البصرة وفى ذكر (خبر حمص) حين قصد هرقل من بها من المسلمين كتب أبو عبيدة إلى عمر بهذا ، فلما بلغ عمر هذا كتب إلى سعد بن أبي وقاص بئدب الجند مع القعقاع .

وفى هذه السنة كتب الخليفة إلى المغيرة بن شعبة أن يشخص أمامه ، وكتب إلى أبي بكر ونافع بن كلفة وزباد بن أبيه وشبل بن معبد البجلي أن يشخصوا أمامه كذلك ، وفى هذه الحادثة كان عزل المغيرة وتنصيب أبا موسى الأشعري عمله ، وكتب الخليفة مكتوباً بهذا .

وفى ذكر (فتح الأهواز ونهرى تبرى) كتب الخليفة إلى عتبة ، وكتب إلى سلمى إلى عتبة ، وكتب عتبة إلى الخليفة ، ورد الخليفة عليه كتابة .

وفىها كتب حرقوص بن زهير إلى الخليفة بفتح سوق الأهواز .

وفى ذكر (صلح الهرمزان) مع المسلمين كتب جزء بن معاوية إلى الخليفة وإلى عتبة ، فكتب الخليفة إلى حرقوص .

وفى ذكر (فتح رامهمز وتستر وأسر الهرمزان) تكاتب هؤلاء الأمراء وأهل الأهواز وتعاقدوا على النصر ، فجاءت الأخبار حرقوص وجزء وسلمى وحرمة فكتب جميعهم إلى الخليفة .. وكتب الخليفة إلى سعد ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري .

وفى ذكر (فتح السوس) كتب عمر يصرف النعمان إلى أهل نهاوند .

وفى ذكر (مصالحة جند يسابور) كتب أمراء الجند إلى الخليفة بأمر هذه المصالحة .. وكتب الخليفة إليهم ردوداً .

وفى ذكر (عام القحط) كتب الخليفة إلى أمراءه . ورد جميعهم كتابة .

وفى ذكر (قدوم عمر الشام) بعد الطاعون كتب إليه أمراء الجند .

وفى ذكر (وقعة نهاوند) تكاتب أمراء الجند بينهم .. وكتب سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة بهذا ، وكتب لعبد الله بن عبد الله بن عتبان .

وفى ذكر (فتح أصبهان) كتب عبد الله بن عبد الله إلى عمر .

وفى ذكر (فتح قومس وجرجان وطبرستان) كتب نعيم إلى عمر بالبشارة وأخماس (الرّى) ..
وكتب إليه الخليفة يأمره بإرسال سويد بن مقرن ومعه نفر إلى قومس ، وكتب سويد إلى أهل
جرجان بالصلح ، وكتب إلى ملك جرجان .

وفى ذكر (فتح أذربيجان) كتب عقبة بن فرقذ إلى بكير ..

وفى ذكر (موقان) كتب سراقفة إلى الخليفة بالفتح ، ثم كتب له بفتح خاقان ويزدجر .

وفى ذكر (فتح سجستان) كتب سلم بن زياد إلى الخليفة .. وكتب إلى عمه معاوية بن أبى
سفيان بالفتح . وكتب أبو موسى الأشعرى إلى الخليفة .

كان هذا آخر مكتوب ذكره ابن الأثير، ذكر بعده وفاة الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

ألا رأيت كيف كان التعامل بينهم وقتل ، ألا رأيت كيف خدمت الكتابة الإسلام حين بَعُدَت
المسافات بين عاصمة الخلافة فى الحجاز وبين الأمصار التى فتحت شرقاً وغرباً ، أما رأيت أن
الكتابة كانت تسير والسيوف جنباً إلى جنب ●

خاصية المكاتب

للقارئ أن ينظر من خلال هذا الفصل كيف أخذ يخصص ويعاين هؤلاء ، الذين يوصمون ظلماً بعموم الأمية ، مكاتبيهم .

الكتاب

من خلال ما مرّ بك في كلامهم ستلمس أن (الكتاب) عمومى اللفظ عندهم جاز له أن يطلق على كل (مكتوب) ، فمثلاً أنت رأيت سراقه بن مالك يقول للنبي (صلى الله عليه وسلم) حين سأله (ماذا تبغى منا) ، فأجابه : تكتب لى كتاباً يكون بينى وبينك .. فهل يمكن تصور الكتاب ههنا كالكتاب الذى فى ذهن كل واحد منا ؟ أو كالكتاب الذى جاء ذكره فى القرآن ؟ وعنى كتاب اليهود أو كتاب النصارى أو غيرهما .

الصيغة

يبدو أنها أصلاً كانت تشمل أسفار الأنبياء ويذيعها الأحبار والرهبان فاقتربت بذكرهم ، ومرّ بنا ذكرها فى القرآن لكن جميعه جاء فى صيغة جمع . (ألم ينبأ بما فى صحف موسى) ، (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) ، (إن هذا لفى الصحف الأولى) ، (صحف إبراهيم وموسى) ، (فى صحف مكرمة) ، (وإذا الصحف نُشرت) . ويأتى أيضاً (صحائف) لكن لم يأت بهذه الصيغة فى القرآن ، إنما ورد فى أشعارهم وكلامهم . قال صخر الغنى :

أبلغ كـبـيراً عـنى مـغـلفـة تـبرق فـيـها صـحـائف جـدد

إلا أن الصيغة الأولى أخف نطقاً وأجمل لفظاً ، فكان لها الشيوع حتى يومنا هذا ، ونحسبهم استعاروا لفظها للمكاتيب ذات الأهمية . مثل اليهود والأمور التى لا تبعد عن جلالها ، فكان عبد الله بن عمرو لديه صحيفة تسمى (الصادقة) يسجل بها ما يسمعه من النبي ﷺ ، وكانت هناك (صحيفة المقاطعة) التى تعاهد بها كثير من القريشيين على مقاطعة رهطين منهم (هاشم) و(عبد المطلب) .

و(صحيفة لقيط) التي ذكرتها آنفاً وفيه قصيدة تحذير لقومه إياد بالجزيرة من إغارة ملك الفرس:

سلام فى الصحيفة من لقيط إلى من بالجسـزيرة من إياد

وقد ذكرت الصحيفة فى كتابة الدين ، والدين على ما نعلم فيه عهد من المدين للدائن ، وفى الغالب كانوا يشهدون أو يضيفون (شهد الله) .

وقد تنحصر الصحيفة من هذه الخاصة إلى العموم ، لكن يبدو مقصدها فى العموم هو (الصفحة) أى المقصود عموم اللفظ وليس الخاصة ، فنحن رأينا على سبيل المثل لقيط بعث لقومه صحيفة يحذرهم فيها ، فهل يمكن تصور صحيفته هذه كصحيفة عبد الله بن عمرو التى كان يسجل بها ما يسمعه من النبى ﷺ ، أو كصحف الرهبان والأخبار .. وذكر الصحيفة ظل يلزم القصص الدينى حتى صدر الإسلام ، ففى (تقيد العلم) يذكر الخطيب البغدادى عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قوله : أصبت أنا وعلقة صحيفة فانطلقنا بها إلى عبد الله بن مسعود ، فلما دخلنا عليه قلنا هذه صحيفة فيها حديث حسن ، فقال : هاتها .. يا جارية هاتى طست واسكبى فيه ماء ، فلما جاء الطست جعل يمحوها بيده ويقول : "نحن نقص عليك أحسن القصص" ، فقلنا : انظرها فإن بها حديثاً عجبا .

المجلة

كانت المجلة تختص أيضاً بحكم الحكماء وبآيات من (الكتاب المقدس) وقد جاء فى ذكر (سويد بن صامت) اليربى أنه قدم مكة حاجاً أو معتمراً فتصدى له النبى ﷺ حين سمع به ودعاه إلى الإسلام فقال سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال النبى ﷺ : وما الذى معك ، أجاب سويد : معى مجلة لقمان^(١) فقال الرسول ﷺ : اعرضها على فعرضها سويد عليه ، فقال الرسول ﷺ : هذا كلام حسن ، معى خير قرآن أنزله الله على هدى ونورا ، وتلا عليه القرآن ، ودعاه إلى الإسلام .. فلم يبعد وقال : هذا الكلام حسن ، ثم انصرف . وورد فى قصيدة النابغة الذبياني (كلينى لهم يا أميمة ناصب) التى مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى المسيحى قوله :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

الزبور

كان يختص الزبور أيضاً بآيات من (الكتاب المقدس) وملازمة ذكر الأنبياء والأخبار والرهبان

(١) يعنى (حكمة لقمان) .

على نحو ما جاء فى القرآن الكريم وفى أشعارهم وكلامهم (فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المبين) ، (إنه لفى زبر الأولين) . وخير كلام نذكره بعد القرآن كلام الرسول ﷺ حين كتب لمصعب بن عمير بعد أن أرسله إلى المسلمين الإثريين معلماً يقول : أما بعد فانظر اليوم الذى تجهر فيه اليهود بالزبور لسبتهم فأجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين .

وذكر أيضاً أنه الكتاب الذى تُدون فيه أعمال البشر ويدون فيه الحساب ليوم الحساب ، وقد ورد فى القرآن على هذا النحو (أم لكم براءة فى الزبر) ، (كل شئ فعلوه فى الزبر) .

وعلى هذا النحو أيضاً ورد فى أشعارهم قال أمية بن أبى الصلت ^(١) :

وابرزوا بصعيد مستوٍ جرر وأنزل العرش والميزان والزبر
وقريب من هذا وذاك قول خزر بن لوزان ^(٢) :

وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم
قد خط ذلك فى الزبور ر ، الأوليات القـدائم
وقد يبعد عن هذه الخاصية ويستعار للتشبيه مثل ما جاء فى قول لبـيد بن ربيعة العامري ^(٣) :

وجلا السيول عن الطلـول كأنها زبر تجد متونها أقلامها
وقول امرئ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجـانى كخط زبور فى عيب يمانى
وقوله :

أت حجج بعدى عليها فأصبحت كخط زبور فى مصاحف رهبان
وقال أيضاً ^(٤) :

أو زبر حمير بينها أخبارها بالحميرية فى عسيب يمانى

(١) (لنصرانية وأدائها) .

(٢) نفس المصدر .

(٣) (معلقته) .

(٤) جميعها (بديوانه) .

وقول المَخَش العَقِيلِي: ^(١)

كَأَن بَحِيثِ اسْتَوْدَعَ الدَّارَ أَهْلَهَا مَخْطُ زُبُورٍ مِنْ دَوَاةٍ وَقَرْطُسٍ
وَوَرَدَ فِي كَلَامِهِمْ (زَبَرْتُ الْكِتَابَ) بِمَعْنَى كَتَبْتَهُ، وَخَبِرْتَهُ بِالذَّالِ ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذِيلِيُّ ^(٢)
عَرَفْتُ الدَّارَ كَقَرَمِ الدَّوَاةِ يَذْبِرُهُ الْكِتَابُ الْحَمِيرِيُّ
لَكِنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِهِمْ بَعَثْتُ إِلَى فُلَانٍ زُبُورًا بِمَعْنَى بَعَثْتُ إِلَيْهِ مَكْتُوبًا بَعِيدًا عَمَّا مَرَّ بِكَ مِنْ
خَاصِيَةِ الزُّبُورِ .

الأَوْصَرُ وَالْإِصْرُ وَالْوَصْرُ

الأَوْصَرُ وَالْإِصْرُ وَالْوَصْرُ صَرْفٌ لِمَعْنَى وَاحِدٍ يَعْنِي الْمَكْتُوبَ الْخَاصَّ بِالْإِقْطَاعِ أَوْ الْإِقْطَاعِيَّاتِ
الَّتِي كَانَ يَقْطَعُهَا مَلِكٌ أَوْ أَمِيرٌ أَوْ زَعِيمٌ قَبِيلَةً لِأَحَدٍ .. يَقُولُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ: ^(٣)
لَأَيِّكُمْ لَمْ يَنْلَهُ عُرْفٌ نَائِلُهُ دَثْرًا سِوَاهَا وَفِي الْأَرْيَافِ أَوْصَارًا
وَقَالَ آخَرُ:

وَاتَّخَذْتُ صِدَامًا ^(٤) لِلْمَكُوثِ بِهَا وَلَا اتَّقَشْشِكَ إِلَّا لِلْوَاصِرَاتِ

السَّجَلُ

السَّجَلُ كَانَ لَهُ خَاصِيَةُ الْأَوْصَرِ وَيَتَجَاوَزُهَا إِلَى تَسْجِيلِ أَيِّ عَقُودٍ .

الْقَطْ

وَجَمْعُهُ قَطَاطٌ وَقَطُوطٌ وَكَانَ هَذَا الْمَكْتُوبُ خَاصًّا بِالْجَوَائِزِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .. قَالَ الْأَعَشِيُّ فِي
الْحَالِ الْأَوَّلِ:

(١) (النصرانية وآدابها) .

(٢) (الاعتضاب) الجزء الأول .

(٣) ذكره الزمخشري في (الفائق) الجزء الثاني ، والبيت الثاني ذكره في (أساس البلاغة) الجزء الثالث ، وأوردهما
دكتور ناصر الدين الأسد في (مصادر الشعر الجاهلي) .

(٤) (صداماً) اسم لفرس .

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطة يعطى القطوط ويأفق
وقال المتلمس فى الحال الثانى : (١)

ألقيتها فى الثنى (٢) من جنب كافر كذلك أقنو كل قط مضلل
وقد مر بنا مجيئه فى القرآن : (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) .

المغلفة

هى الرسائل التى كانت تُنقل من بلد إلى آخر ، وقد مرّ بك طائفة منها ، مثل رسالة عبد المطلب
إلى أخواله ورسالة جده قصى بن كلاب لأخيه رزاح ، ومثل رسالة الوليد إلى أخيه خالد ، ورسالة
بجير إلى أخيه كعب ، وغيرها .
يقول صخر العي (٣) :

أبلغ كبيراً عنى مغلفة تبرق فيها صحائف جدد
فيها كتاب ذبر لمقتري يعرفه البهم ومن حسدوا
وورد فى كلامهم ذكر البريد والمغلفة معا بما قد يوحى بأنهم عرفوا البريد عن طريق الفرس
لا سيّما إن كان اللفظ فارسى ، لكن لا نحسب أن ظروفهم حيثئذ تجعلهم يتخذون له شكلاً نظامياً .
قال سعيد بن العاص (٤)

يا راكباً إمّا عرضت مبلغاً بريداً
عثمان أو عفان أو بلغ مغلفة أسيداً
فلا أمدحنّ الوافدين بمديحة تأتى سروداً
حسناً دوابرها أحبرها فتحسبها بروداً

(١) ذكرهما البليموسى فى (الاقتضاب) الجزء الأول .

(٢) (الثنى) منرج الوادى وكافر ، جزء متسع من الأرض يغطيه الماء ، أو الجزء المتسع من بحيرة أو تلة .

(٣) (النصرانية وآدابها) .

(٤) فى (جمهرة نسب قرش) ، فى (ذكر نسب عثمان بن الحويرث) .

الآية

تعنى أيضاً الرسالة المتقولة ، قال أبو العاص بن أمية أو غيره :

أبلغ لديك بنى أمية آية نصحا مبينا
أنا خلقنا مصلحين وما خلقنا مفسدين

يقول الأستاذ محمود شاكر^(١) : الآية تعنى الرسالة وهذا معنى أغفلته كتب اللغة وأول من جاءنى بالحجة عليه أبو جعفر الطبرى فى تفسيره الجليل فى الجزء الأول صفحة ١٠٦ واستشهد بقول كعب بن زهير :

ألا أبلغنا هذا المعروض آية أيقظان قال القول إذ قال أم حلم
قال : يعنى بقوله (آية رسالة منى وخبر عنى وقد كنت أشرت إلى نحو هذا فى (طبقات فحول الشعراء) فى شرح هذا البيت صفحة ٨٩ تعليق ٤ مع إيهام فى العبارة عنه ، فلما جاء تفسير الطبرى جمعت له أكثر من ثلاثين شاهداً من كلام العرب وشعرهم .

الرق

قالوا : إذا كان الكتاب من جلد فهو (رق) ، ومرّبنا ذكره فى القرآن : (وكتاب مسطور) ، (فى رق منشور) .

وقال طرفة بن العبد^(٢) :

كسطور الرق رقصه بالضحى مرقش يشمه
وقال حاتم الطائي^(٣) :

تعرف آثار الديار توهما كخط فى رق كتاباً منمما
ويُنسب لخالد بن الوليد قوله :

هل تعرف آثار الديار توهما كالرق أجرى عليها حاذق قلما

(١) فى (نسب قريش وأخبارها) للزبير بن بكار ، بشرح وتحقيق محمود شاكر .

(٢) (ديوانه) .

(٣) البيتان ذكرهما أبو الفرج الأصفهاني فى (الأغانى) عند ذكر حاتم الطائي وعند ذكر خالد بن الوليد .

المهرق

هو مكتوب خاص بالموك والأمراء والمترفين من الأغنياء إذ إن أصله قطعة من حرير تُعد ثم تصقل بالصمغ ثم بالخرز ويكتب فيها فتصير عندئذ مهرقا . وجمعه مهارق وأصله فارسي وكان ذا شأن عظيم عندهم ، ومنهم انتقلت معرفته إلى الحيرة ومن ثم إلى داخل الجزيرة العربية ، وقد تكون معرفة عرب الجزيرة به معرفة مباشرة .. وورد ذكر هذا النوع الراقى كثيراً فى أشعارهم ، يقول الحارث بن حلزة ^(١) فى :

لمن الديار عفون بالحُبش آياتها كمهارق الفرس
وقال الأعشى ^(٢) :

ربى كريم لا يكدر نعمته وإذا يناشد بالمهارق أنشدا
وقال أيضاً ^(٣) :

سلا دار ليلى هل تبين فتنطق وأنى ترد القول بيضاء سملق
وأنى ترد القول دار كأنها لطول بلاها والتقادم مهرق
وقال سحيم بن خويلد ^(٤) :

تسمع أصوات كُذرى مثل الأعاجم تغش المهرق والقلما
وقال الأسود بن جعفر :

سطور يهوديين فى مهرقيهما مجيدين من تيماء أو أهل مدين
وقال سلامة بن جندل :

لبس الروامس والجديد بلاها فتركن مثل المهرق الأخلاق
وقال الحارث بن حلزة :

واذكر حلف ذى المجاز وما قُدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى ، وهل يُد قص ما فى المهارق الأهواء .

(١) (المفضليات) صفحة ١٣٢ .

(٢) (النصرانية وآدابها) .

(٣) (أدب الكتاب) للمصولى صفحة ١٠٣ .

(٤) هذا البيت والأبيات الأربع التالية ذكرها دكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) .

القطيم

هو المكتوب الذى كان من جلد أبيض ، ذكره الزمخشري فى (الفائق) ^(١) ، قال : إن الوحى كان يُكتب فى عهد الرسول «ﷺ» على القطيم . يقول زهير بن أبى سلمى ^(٢) :

كأن دماء المؤسسات بنحراها أطيبة صرف فى قطيم مسرد
وقال امرؤ القيس ^(٣) :

فعادى عداء بين ثور ونعجة وبين شبوب كالقطيمة قرهب
وقال علقمة بن عبدة ^(٤) :

وذكرينها بعدما نسيتهما ديار علاها وإبل معتبق
بأكناف سمات كأن رسومها قطيم صنّاع فى أديم منمق
وقال النابغة الذبياني :

كأن مجر الرامسات ذيولها عليه قطيم ثمقته الصوانع

القرطاس

قيل ^(٥) القرطاس يستعمل فى كل بطاقة يكتب فيها ، ذكر هذا البطليموس فى كتابة (الاقتضاب) .

وصف الكتابة

بعد أن رأينا أنى كانوا يخصصون ويعاينون مكائبيهم نرى الآن أنى كانوا يصفون كتابتهم . كانت الصفحة التى كتب عليها بعد مسح يطلقون عليها (طرس) أى الصفحة التى كان بها كتابة ومُحيت ، ثم كتب بها ثانية . وقالوا : رقت الكتاب رقماً ، أى بينت حروفه ونقطه ، ولمقتته

(١) أورد هذا أيضاً دكتور ناصر الدين الأسد فى نفس المصدر .

(٢) ديوانه .

(٣) ديوانه .

(٤) (النصرانية وآدابها) ، وفى (معجم ما استعجم) صفحة ٥٠٥ .

(٥) لى فيه حديث قادم .

يعاينها ، وذكروا أيضاً وصفهم لأدوات الكتابة غير أنى أكتفى بهذا إذ أرى ولعلك ترى معى أننا
لم نعد نتوسع ونعنى بأمر أوصاف الكتابة وأدواتها كما توسع وعنى هؤلاء الذين يوصمون بعموم
الأمية ●

القرآن وأميتهم

لعلك تتساءل بعدُ : أتى وصف القرآن العظيم هؤلاء بالأمية ؟ : إن القرآن لم يعن وصفهم بأمية القراءة والكتابة ، وإلا كان القرآن - والعياذ بالله - يناقض الواقع أو ما كان واقعا ، إنما الذى يناقض ما كان واقعا هم دعاة التعمية وأن القرآن عنى بأميتهم (أمية لكتاب سماوى) . أى إن العرب قبل مجيء القرآن لم يكن لهم ما كان لليهود والنصارى من كتب دينية ، وهذا ما ورد فى تفسير السلف من العلماء المعنيين وذكره ابن هشام فى (سيرته) إذ قال فى شرح الآية العشرين من سورة آل عمران : (قل للذين أوتوا الكتاب والأمينين) . إن الأميين هم الذين لا كتاب لهم مثل كتب اليهود والنصارى .

وعلى هذا النحو أوردته الطبرى فى (تفسيره) . قال : إن الأميين هم الذين لم يؤتوا كتاباً ، أى الوثنيين من العرب .. بل إننا إذا ما تأملنا هذه الآية لوجدناها مفسرة أو أدنت نفوسنا من هذا التفسير عند الوهلة الأولى ، وتحقق ما فى خلدنا عند البحث والدرس ، أو حتى السؤال .

ثم أكد العلماء هذا بتفسيرهم وشرحهم للآية الثامنة والسبعين من سورة البقرة (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني) . فإن الأمية هنا أيضاً لا تعنى الجهل بالقراءة والكتابة إنما تعنى (الفطرة) وذلك يبدو أكثر وضوحاً ولا لبس فيه حين فسروا كلمة (الأماني) بأنها القراءة ، وحسبنا أن يقرها الشيخ ^(١) (محمد محبى الدين عبد الحميد) علم من أعلام العربية . وعليه يكون تفسير الآية هكذا : ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة تكون الآية هكذا (منهم أميون لا يعلمون الكتابة إلا قراءة) . فهل نظن أن القرآن يأتى بتناقض - معاذ الله أن يكون - إنما المقصود الفطرة ، أى أن هؤلاء يقرأون الكتاب على فطرتهم دون تأمل ويبحث ، وقد لا يكون المقصود بهذا العرب أو قصد أهل الكتاب منهم ضمن ما قصدت الآية إذ إنها تخاطب أهل الكتاب .

والمقصد السهائى لهذه الآية : أن أهل الكتاب يقرأون كتبهم على فطرتهم دون أن يعلموا أنها

(١) كان - رحمه الله عليه - أستاذاً فى كلية اللغة العربية بالأزهر ، وهو هنا الذى راجع (سيرة ابن هشام) وضبط حواشيها ، وللشيخ مؤلفات قيمة وعديدة منها شرحه لكتب (ابن هشام المصرى النحوى) شرحاً قيماً .

حُرُفَتْ وَنُقِلَ بعض الكلم عن مواضعه . ويصدق لدينا هذا أن آية سبقتها تقول : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) . ثم إن الآية التي تليها تقول : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) .

وقد فسر بعض العلماء كلمة (الأماني) بمعنى التلفيق ^(١) والأكاذيب ، أى كلام وضعه فريق من أهل الكتاب للحصول على مال أو مُلك باسم الدين . وهذا الشرح والتفسير لا يغير مقصود الأمية فى الآية بأنها (الفطرة) وبأنها القراءة مجرد قراءة وترديد دون عقلانية وتأمل .

أما الآية الثانية من سورة الجمعة (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . فقد قال بعض المفسرين فى (الأميين) نفس القول السابق ، أى هم (من لا كتاب لهم) وجاء تفسيرهم على هذا النحو (هو الذى بعث فيمن لا كتاب لهم رسولا منهم يحمل إليهم كتاباً ليزكيهم ويعلمهم آياته وحكمته ، واستطردوا مستشهدين بالجزء الثانى من الآية وقالوا : إن معجىء (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) هو نفسه تفسير لهذا .. وقال بعضهم : المقصود بالأميين فى هذه الآية ، هم الوثنيون الذين كانوا لا ينصاعون لأحكام الله .

وكما نرى أن آياً من العلماء القدماء والمحدثين لم يذكر أن ورود كلمة (الأمية) فى القرآن تعنى أمية القراءة والكتابة .. عجباً وهل كان مصطلح أمية القراءة والكتابة معروفاً حينئذ .

أما الحديث الذى ورد عن النبى ﷺ : (نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) ، فحسبى أن أشير إلى المناسبة التى قيل فيها وعلى الفور سيتضح لك قصد النبى ﷺ من قوله هذا ، وأنه لم يقصد جهل أمته بالقراءة والكتابة . وهذه المناسبة هى (رؤية هلال رمضان) أو غيره من الشهور العربية ، أحسبك فهمت الآن مراد النبى ، وهو أننا أمة نعتمد على رؤية الهلال ولا نحسب ولا نكتب تقويمياً مسبقاً لشهورنا إلا بعد أن يبدو لنا الهلال ، وهذا هو رأى علماء تخريج الأحاديث .

وأحسب أن هذا أمر عملنا به حتى عهد قريب ولا زلنا نعمل به شكلاً وسنة .. وهل كان يقول النبى ﷺ بما يخالف القرآن ، ألم يذكر القرآن علم الأمة بالعدد والحساب ؟ : (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد

(١) ارجع لشرح الشيخ محبى الدين لطفى حجة ودلالته بما استشهد به ، وسيأتى فى موضع قادم حديث لعمر بن الخطاب يدل على أن (الأماني) تعنى القراءة .

السنين والحساب . وكل شيء فصلناه تفصيلاً)، (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) .. وهل الأمة الأمية هي التي تدون دويناً كالذى أمر بإنشائه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وأحصى فيه عددهم كبيراً وصغيراً ، وكان العامل الأساسى فيه هو الوقوف على الحالة الاجتماعية للجنود حين كثر المال ورأوا أن يكون العطاء ذا جدوى .

بل إنه مرّ بك فى كلام النّبي ﷺ ذكر دقة الحساب وذلك تجده بعهد لاهل لبحران : (هذا^(١) كتاب محمد النّبي رسول الله لاهل لبحران إنه كان له عليهم حُكْمه فى كل ثمرة صفراء أو بيضاء أو سوداء ، أو رقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حلة حُلل الأواقي فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة كل حلة أوقية فما زادت حُلل الخراج أو نقصت على الأواقي فبالحساب وما قبضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم فبالحساب .

أما ترى فى قول الرسول ﷺ توخى الدقة فى الحساب ، أما ترى فيه الحرص عليه والحث على العمل به .

وفى نهاية هذا الفصل يبدو لنا أنهم لو كانوا أميين قراءة وكتابة لجاءتهم آيات مادية عينية يلمسونها ويرونها ، ولأنهم كانوا غير ذلك جاءهم كتاب بليغ معجز يفوق ثقافتهم اللغوية ويقفون أمامه صاغرين ، وإن من آيات هذا الكتاب ما جاءتهم بخطاب التحدى : (إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) ، (قل فأتوا بسورة مثله) ، (قل فأتوا بعشر سور مثله) ، بل إن التلويح بهذا يردده العلماء صباح مساء .. ●

(١) ارجع إلى هذه الوثيقة فى الفصل الذى عقدته عن (رسل ورسائل النّبي) وأشارت إلى المرجع هناك .

ما معرفة عموم عرب الجزيرة بالقراءة والكتابة

بدا لنا أن أهل مكة ومعهم أهل يثرب في هذا الحين حازوا على القدر الأعظم من اهتمام كتاب السير والأخبار دون غيرهم من العرب ، وهذا أمر طبيعي لكون الرسول ﷺ من هذه المنطقة ولكونه جديراً بهذا ، وأن وقوفنا على هذا الأمر أو أن الحجة الدامغة فيه ستكون من خلال اتصال سائر العرب بالنبي ﷺ واتصال النبي بهم ، لكن قبل أن نتطرق إلى سائر العرب جملة علينا أن نقف أولاً على معرفة أهل المدينة بالقراءة والكتابة . يقول ابن سلام في (طبقاته) عند تقييمه الشعراء الجاهليين : كان أهل القرى يكتبون لجوارهم أهل الكتاب ، وجعل أولى هذه القرى المدينة ، فمكة ، فالطائف ، فاليمامة ، فالبحرين .

ويقول الطبري في (تاريخه) : إن المدينة كانت كاتبة .

ويذكر هذا أيضاً ابن سعد في (طبقاته) .

بينما يقول ابن هشام في (سيرته) : إن بيوت العبادة لليهود في المدينة كان يطلق عليها (المدراس) لأنها حيث لم تقتصر على العبادة إنما كان يلقي بها التعليم غير الديني .. وكما يبدو لك من لفظ المدارس أنه صيغة مبالغة ، ولا يخفى عليك أنها تُصاغ على هذا النحو دلالة على كثرة ما صيغت منه .

ويؤكد لنا ما قاله الأخباريون وكتاب السير بيت من الشعر قاله سمّك اليهودي يخاطب به الأنصار:

وكسانوا المدارسين^(١) لكم علم به التوراة تنطق والزبور

ويذكر المسعودي وغيره ممن تناولوا سيرة زيد بن ثابت بأنه تعلم اللغات الأجنبية على أصحابها بالمدينة ، لكن أمر المدينة هنا يختلف عن أمر مكة ؛ فمكة كان يستوطنها العرب منذ عهود بعيدة سواء كانوا عاربة أو مستعربة ، أما المدينة فكان اليهود هم السابقين إلى استيطانها ، ثم نزح إليها من اليمن قبيلتا الأوس والخزرج ، فيكون السبيل إلى معرفة متى وكيف عرف سكان المدينة الكتابة

(١) يقصد قومه اليهود ، وهذا البيت ضمن بضعة أبيات قالها عقب اغتيال كعب بن الأشرف اليهودي على أيد المسلمين بعد أحداث جرت بينهم .

الشمالية أو يدنو من هذه المعرفة أمراً صعباً ، فالعنصران الأساسيان بها غريبان عن الشمالية وأحدهما غريب عن العربية كلية . إذ قيل إن أصل اليهودية جاءت إليها من فلسطين مع أصحابها الفارين من تعسف الرومان ، وهم الذين أطلقوا عليها اسم المدينة وهو تصحيف للفظ (مدينتا) العبرى أو الآرامى ، ثم تهود بعض العرب ، وثمة من ^(١) يذكر أن العمالة هم أول من سكن هذا البلد وظلوا به حتى مجيء اليهود فى القرن الثانى الميلادى ، لكنه لم يذكر أنى نزح عنها هؤلاء العمالة ولا أنى لقوا اليهود عند مجيئهم إليها .

ثم إن الإسرائيليين فى هذا الحين لم يكونوا خالصى الشقافة الإسرائيلية ؛ فقد اضطرتهم الظروف لأن يعرفوا حضارات عديدة منها المصرية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية ورأينا فيهم فلاسفة ومؤرخين وكتاباً متأثرين بهاتين الحضارتين بل إننا رأينا هذا التأثير قد تسلسل إلى بعض طوائفهم الدينية الكبرى ، مثل طائفة (الصدوقيين) نسبة إلى الحاخام الأكبر (صدوق) الذى كانت له ولأبنائه كهانة الهيكل منذ عهد النبى (داود) ، وبقيت فيهم حتى عهد (المسيح) ، وهذه الطائفة على الرغم من تشدها فى التعاليم الدينية القديمة إلا أن أعيانها وكثير من معتنقيها كان مسلكهم المعيشى مخالفاً لهذا ، إذ كانوا يأخذون بأسباب الحضارة اليونانية والرومانية وكانوا ذا طابع ارسقراطى .

وطائفة أخرى هى طائفة (الأسين) نسبة (للأسى) وهو لفظ آرامى يعنى الطبيب ، ويلفظه هذا عُرْف فى العربية ، وقيل سبب إطلاق هذا التعريف عليهم هو تعاطيهم الطب الروحانى ، وقيل أيضاً أن منشأها كان فى القرن الثانى قبل الميلاد بمدينة الاسكندرية ، ومنزلة الاسكندرية حينئذ منزلة حضارية عظيمة ، ثم انتقلت هذه الطائفة إلى فلسطين .

إذن فقد جاء هؤلاء اليهود إلى المدينة وبينهم من تأثروا بهذه الحضارات ، ثم لا ينبغى أن يفوتنا أن الحين الذى أقبلوا فيه على المنطقة هو نفس الحين الذى فرّ فيه الأنباط عن مملكتهم ووطئهم الرومان .. فهل التقى هؤلاء بأولئك وقرب بينهما أن فرارهما نجم عن عدو واحد . إن الوقوف على هذا بالتحديد لم يبدُ لى ، غير أنه بدا لنا أنه كان بالمدينة ضاحية تسمى (سوق الأنباط) كان ينزل بها الأنباط قديماً ، وعند مجيء الإسلام ذكرت هذه الضاحية حياً للنصارى ، فهل هؤلاء النصارى هم أنفسهم الأنباط ؟ إن المصدر ^(٢) الذى ذكر وجود النصارى بهذا الحى لم يذكر أكثر من كونهم نصارى واجتهد ليثبت هذا .

(١) دكتور شوقى ضيف فى (العصر الجاهلى) صفحة ٥٣ .

(٢) الأب لويس شيخو اليسوعى فى (النصرانية وآدابها) .

ثم نزع الأوس والخزرج إليها مع بداية القرن الرابع الميلادي وعليه يكون التقى بهذه المدينة أصحاب حضارات ولا بد أنهم نقلوا إليها ما يلائمها من حضاراتهم ولما كانت طبيعة المنطقة غير ملائمة لأسباب الحضارة المعقدة نقلوا إليها أبسط أمورها وعنوا الزراعة فجعلوها منها ومن مناطق دونها واحات وأقاموا أيضاً الصناعات الملائمة ، ولم يهتموا فيه العمارة كلية فعنوا أبسط أمورها وهى الدور الجميلة ، لكنهم لم يدعوا الحصون والأبراج والأسوار .

والحق أن الفضل فى هذا كله يرجع لليهود وأن اليمنيين جاءوا وهذا الحال قائم ، لكن لا شك أن هؤلاء جميعاً نقلوا إليها أبسط الأمور التعليمية وهى القراءة والكتابة وما استطاعوا حمله من كتبهم الدينية ، وشيئاً فشيئاً يعودون فيتوسعون فيه وهذا ما بدا لنا فعلاً ، فلا أحد يستطيع إنكار انتشار التوراة والزبور والإنجيل والصحف والمجلات الدينية والحكمية فى المدينة وتداول اللغات الأجنبية أيضاً ، وقد رأينا هذا فى سيرة زيد بن ثابت على سبيل المثل والدواعى الظهورية ، ورأيناهم يحملون تلك الأسفار والمجلات أينما ذهبوا يهوداً وغير يهود ، والقرآن أشار فى مواضع كثيرة إلى حملهم الأسفار المقدسة ، وسجلت لنا الدواعى الظهورية (سويد بن صامت) وهو غير يهودى يفعل هذا حين تصدى له النبى فى موسم الحج ، إن هذا لا يُنكر لكننا - كما نوهت - لا ندرى على وجه التحديد آتى ومتى عرفوا العربية الشمالية ، أو متى صارت الكتابة الرسمية لهم جميعاً وبقاء العربية للتعاليم الدينية لليهود .

الحقيقة أن أمر الوقوف على معرفتها بالكتابة الشمالية أكثر بعداً عن الوضوح من مكة وأقل دلالة ، حتى التضارب الذى رأيناه سالفاً عند الحديث عن نشأة الخط العربى ليس به أى إشارة صريحة إلى المدينة ، غير أنه لدينا دليلان قويان على أن الكتابة كانت قديمة بها :

الأول : هو قربها من موطن الخط النبطى العربى ، ونزول الأنباط أنفسهم بها ، ثم هى دون عمر القوافل وكان بينها وبين مكة صلة وثيقة وتلك أمور تنفى عنها التخلف .

الثانى ، هو يقينى ويتمثل فى انتشار الأسفار والصحف الدينية ومجلات الحكمة وكانت كلها بالعربية وكان ظهورها على أدنى تقدير فى منتصف القرن السادس الميلادى ، وعليه فيكون سبق هذا الزمن زمن ترجمة لهذه الأسفار من العبرية إلى العربية ، ولا يمكن أن نتصور قيام هذا بدون قاعدة علمية ، ومن ثم يكون سبق زمن الترجمة والنسخ زمن آخر ألّوا فيه بهذه الكتابة وأتقنوها . بل إن الدلائل تشير بأنهم قننوا بعض مصطلحات تلامم متطلباتهم اللغوية لدواعى حياتهم الثقافية فى هذا الحين . وتستطيع الاستدلال على هذا من خلال المساجلات الأدبية التى كان العرب يقيمونها فى محافلها وكان لمنطقة الحجاز الريادة فى هذا ، وكان بالمدينة شعراء كبار ، ويلم بهم

شعراء كبار أيضاً وفي إحدى تلك المرات بدا نقدهم في (موسيقى الشعر) وقالوا لشاعر كبير بعد أن أنشد دونهم : أحسنت أبا أمانة ، غير أنك أقويت . وأبو أمانة هو النابغة الذبياني ، و(الإقواء) هو اختلاف حرف الروي ^(١) في الإعراب ، وفي علم (موسيقى الشعر) يسمى اختلاف حركة (المجرى)، أى اختلاف مجراه من الكسر مثلاً إلى الرفع ، وعندئذ اصطلاح على تعريفه (إقواء) ^(٢)، أما القصيدة التي أنشدها النابغة فهي دليته في المتجرده . ودونك مطلعها :

أمن آل مَيَّة رائعٌ أو مغتدٍ عجلان ذا زادٍ وغير مزودٍ
أفدَ التَّرحلُ غير أن ركابنا لما نزل برحالنا وكأن قيدٍ
زعم الغراب بأن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغداف الأسود

ثم إنه كرر هذا العيب في البيت الثامن عشر من القصيدة إذ قال :

بمخضب رخصٍ كأن بنانه غنمٌ يكاد من اللطافة يعقدُ

فإن قلت إنهم استدلوا على هذا بطبعهم وقرينتهم التي فطروا عليها فسيكون هذا إغفال ، إذ إن الأجدر بهذه القرينة هم الشعراء وليس من هم أقل منهم حظاً ونصيباً في هذا . وعندئذ ترى أن تقنينهم لمثل هذه الفصول العلمية كان مرجعهم في الصواب والخطأ ، وثم كان نقدهم ..

والذي لا ينكر وما يعيننا هنا هو أن الكتابة الشمالية كانت تبدو لغير المحقق منتشرة في منتصف القرن السادس الميلادي على أدنى تقدير . ورغم هذا فقد رأينا من يقلل من شأن الكتابة بها حتى أن البلاذري ينزل بعدد الكاتنين فيهم حين دخلها الإسلام إلى أحد عشر كاتباً ^(٣) .

أهمية الكتابة عندهم

يكفى ما نوهت به ، وهو انتشار الكتب الدينية ومجالات الحكمة وترجمتها إلى العربية ، وحملهم هذه الأسفار أينما ذهبوا وكل إشارة إلى غيره تكون دونه وما أكثر ما نشير به وإليه منه ما مرّ بك وما سيمر .. وفي النهاية أقول لعلّ أكون وضحت لك أمر المدينة العلمي أو دنوت بك من هذا ولعل ما بقى من حديث عنها يبلغ بنا هذا .

(١) (الروي) آخر حرف في البيت .

(٢) (الإقواء) عرفت أنه اختلاف حركة المجرى ، وهو أحد العيوب الكثيرة التي عرّفها العروضيون والتي تلحق بالقافية عموماً ، ومن ثم يبدو لك أن الروي هو جزء من القافية ، وحسى هذه الإشارة ههنا .

(٣) الحقيقة أن هذا الإحصاء للبلاذري بعيد من أن يؤخذ به ، وسوف أبين لك هذا عند نهاية الكتاب .

بقية أهل الحجاز

ألا ينبغي علينا أن نخص بقية أهل الحجاز بوقفة في هذا الموضوع ، وإنها وإن كانت وقفة قصيرة إلا أنها تبين لنا أمرهم الكتابي واضحاً . ففي باب القول في اللغة التي نزل بها القرآن يقول ابن فارس ^(١) نقلاً عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على سبعة أحرف منها خمسة بلغة العَجَز من هوازن وهم الذين يقال لهم (علياً هوازن) وهي خمس قبائل أو أربع (سعد بن بكر) ، (جشم بن بكر) ، (نصر بن معاوية) ، (ثقيف) وأحسب أفصح هؤلاء بنى سعد لقول النبي ﷺ «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش وأنى نشأت في بنى سعد ، وكان مسترضعاً فيهم ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب علياً هوازن وسُفلى تميم ، وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مُضر ، وقال عثمان بن عفان عند كتابة المصاحف : اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف .

وقال عمر بن الخطاب : لا يملِّين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف .. ولعل هذا يدل على كثرة الكتبة في هذه المنطقة وانتشار الكتابة عموماً حتى ينظر الخلفاء والمعنون بكتابة المصاحف من يكتب ومن لا يكتب .

بقية عرب الجزيرة والقراءة والكتابة

ذكرت آنفاً أن الحجة الدامغة فيه ستكون من خلال اتصال العرب عموماً بالنبي ﷺ ، وأهم هذا الاتصال ، وأهم ما يعيننا هنا هو الاتصال المباشر الذي تمثل في الوفود ، فإننا رأينا أن كثيراً من هذه الوفود لم يثنوا عن النبي ﷺ إلا ومعهم المكاتيب المختلفة ، بل رأيناهم هم الذين كانوا يطلبون من الرسول ﷺ هذه المكاتيب ، فتروى لو لم يكونوا قارئين كاتبين ، بل لو لم تكن للكتابة الأهمية عندهم كانوا يطلبونها حجة وبرهاناً بين أيديهم ، فمثلاً هب أن قيس بن سلمة الذي نصبه النبي ﷺ رئيساً على مُران ومواليها وحريم ومواليها والكُلاب ومواليها بلغ هذه البلاد وأعلن في أهلها رياسته عليهم من قبل النبي ﷺ «أما أحوجه هذا إلى برهان يدفعه إليهم ليصدقوه ؟ وترى لو لم يكن في هذه البلاد القارئون الكاتبون ، ونتجاوز هذا ونقول ، لو لم تكن للكتابة الأهمية والتقدير عندهم كان حمل إليهم قيس كتاباً ألبته .

وهب مثلاً أن الأرض التي أقطعها النبي ﷺ لثور القشيري أو غيره كانت دون قوم

(١) في كتابه (الصاحج) .

فاعترضوا أن يحوزها ثور ، ألم يقدم لهم حيثئذ حجته وهى كتاب النبى ﷺ بهذا ، ولو لم يكونوا مقدرين لأهمية الكتابة كان يحمل إليهم هذه الحجة .

بل إنك رأيت كيف انزعجت المرأة التميمية حين طلب صاحبها الشيبانى أن يكتب له الرسول ﷺ أرض الدهناء وانبرت معترضة ، وجعلت تبدى للنبى ﷺ أسباب اعتراضها حتى عدل عن هذا .

وكانت غالب مكاتيب الرسول ﷺ لا تخرج عن هذا كما ذكرت آنفاً ، أى كانت بالرياسة والإقطاع أو الموادة والأمان والتحالف أو جباية الصدقات أو الجزية أو الفروض .

إذن فهذه حجة دامغة نحتج بها لأهمية الكتابة والقراءة عند عموم العرب ، علاوة على الرسائل التى بعث بها النبى ﷺ إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية حتى الجماع الذين كانوا يعتصمون بجبل .. وهناك أمر آخر يدلنا على أن القراءة والكتابة كانت منتشرة فى الجزيرة العربية ، وهذا الأمر يتمثل فى (طلب النجدة) التى رأيناها تصدر عن شعرائهم أو عن بعضهم ، مثلما رأينا من مرقش حين غدر به الغفلى وحمل امرأته على هذا ، فاستنجد كتابة :

يا راكباً إما عرضت فبلغن أنس بن سعد إن لقيت أو حرملا
فأنت ترى أن النداء هنا عام إذ إن مقتضى الحال لا يحتمل أن يعنى شخصاً ولا مكاناً بعينه ،
لذا جاء بالنادى منصوباً لفظاً لكونه نكرة غير مقصود بها معين ؟ .

ومثله قول عبد يغوث بن وقاص الحارثى حين أسرته التيم فى يوم الكلاب الثانى :
أيا ركباً إما عرضت فبلغن ندامى من لجران أن لا تلاقيا
وقريب من هذا قول دريد بن الصمة :

يا راكباً إما عرضت فبلغن أبا غالب أن قد ثارنا بغالب
وعلى شاكلة هذا يستجد كثيراً فى الشعر الجاهلى وصدر الإسلام
ألا ترى أنه لولا يقين الشاعر بانتشار القراءة والكتابة ما كان يجىء خطابه عاماً على
هذا النحو ●

تجاوز ابتدائية الكتابة

رأينا شأن المكين والمدنيين مع القراءة والكتابة شأن من تجاوز ابتدائيتها بعهود ، والآن نحاول أن نلقى نظرة على سائر العرب في هذا الشأن ، وكما ذكرت مراراً أن المكين والمدنيين حازوا القدر الأعظم من اهتمام كتاب السير والأخبار ، فاستطعنا من خلال هذا أن نلمس أن الكتابة كان يمكن أن تشكل ضغطاً نفسياً ووسيلة عقابية على المكى ، واستطعنا كذلك أن نقف على تجاوز الإثريين شأن تلك الابتدائية من خلال التراجم والنسخ وغيرهما كما مرّ بك وكما ستراه لاحقاً ، لكن لأن أمر المدينة كان أقل وضوحاً لا سيما اجتماعياً فنأى بنا على أن نبليغ أثر الكتابة على نفسياتهم بالدليل الذى استدللنا به على المكين .

وقد استطعنا أن نقف على معرفة العرب بالقراءة والكتابة من خلال اتصال النبی ﷺ بهم واتصالهم به ، ورأينا اهتمامهم بالكتابة ، ولعل يكون فى اهتمامهم للحصول على الوثائق الكتابية فى تعاملهم وحرصهم عليها لدليل على تجاوزهم ابتدائية القراءة .

الكتب المترجمة وتعقبها

أبدينا معرفة عرب ما قبل الإسلام بالقراءة والكتابة ، ثم أبدينا تجاوزهم ابتدائيتها وآثارها فى نفوسهم ، وما احتججنا به على هذا (ترجمة الكتب ونسخها) . ويبدو أن استمرار هذه الكتب بأيدى الناس أزعج الخليفة العادل عمر بن الخطاب (ر)، ففى (تقيد العلم) يقول الخطيب البغدادي : إن خالد بن عُرْفُطَةَ قال : كنت جالساً عند عمر ، إذ أوتى برجل من عبد القيس سكنه بالسوس فقال عمر : أنت فلان بن فلان ؟ أجاب الرجل : نعم ، قال عمر : وأنت النازل بالسوس ؟ أجاب الرجل : نعم ، فضربه عمر بقناة كانت معه ، فقال الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : اجلس ، فلما جلس قرأ عليه عمر (بسم الله الرحمن الرحيم (الر ، تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص) . فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً . فقال الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أنت نسخت كتاب (دانيال) ^(١) . قال

(١) (دانيال) نبي من أنبياء العهد القديم (ع) .

الرجل : مُرِنِي بِأَمْرِكَ أَتُبِعُهُ ، قَالَ عَمْرٌ : انْطَلِقْ فَامْسَحْ بِالْحَمِيمِ وَالصُّوفِ الْأَبْيَضِ ثُمَّ لَا تَقْرَأْهُ وَلَا تَقْرِيهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، فَلَسْتُ بِلَغْنِي عَنْكَ أَنْكَ قَرَأْتَهُ أَوْ أَقْرَأْتَهُ أَحَدًا لِأَنْهَكَكَ عَقُوبَةُ ، فَلَمَّا هَمَّ الرَّجُلُ بِالْإِنْصِرَافِ أَعَادَهُ عَمْرٌ لِلْجُلُوسِ ، ثُمَّ قَالَ : انْطَلَقْتُ أَنَا فَانْتَسَخْتُ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ (أَهْلِ الْكِتَابِ) ثُمَّ جِئْتُ بِهِ فِي أَدِيمٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَا هَذَا يَا عَمْرُ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كِتَابٌ انْتَسَخْتَهُ لِنَزَادٍ بِهِ عِلْمًا إِلَى عِلْمِنَا ، فَغَضِبَ ^(١) الرَّسُولُ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجَنَّتَاهُ .

وفى باب وصف العلة فى كراهة كتابة الحديث من القسم الثانى من نفس المرجع ، يقول الخطيب البغدادي : إنه بلغ عمر ظهور كتب فى أيدى الناس ، فاستنكرها وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها ، لا يبقين أحد عنده كتاباً إلا أنا أنانى به فأرى فيه رأى ، فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف ، فجعلوا يأتون بكتبهم ، فلما اجتمعت كلها عنده أحرقها عن آخرها ، ثم قال (أمنية كأمنية أهل الكتاب ...) إنك لو توقفت هنيهة عند قول (أمنية كأمنية أهل الكتاب) لذهب خاطرك على الفور إلى الآية الثامنة والسبعين من سورة البقرة (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) فترى أن قصد عمر أن قراءتهم مثل قراءة أهل الكتاب ، أو هم يريدونها كذلك ، وهذا ما أشرت إليه آنفاً عند تفسيرهم لكلمة (أمانى) ، إنما الإشارة إلى شرح الشيخ (محمد محيى الدين) أعظم فائدة .

وروى عن ابن مسعود أن رجلاً جاءه ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبى الدرداء وقصص من قصصه فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تنظر ما فى هذه الصحيفة من كلام أخيك أبى الدرداء ، فأخذ ابن مسعود الصحيفة فجعل يقرأ فيها وينظر حتى أتى منزله فأخذ يدلكها بالماء وهو يقول : الر ، تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن القصص) .. أقصصاً أحسن من قصص الله تريدون ؟

ونفهم من هذا أن أبا الدرداء كان يكتب هذا الكلام لكن مراد (كتب) هنا لا يقصد بها معناها المعاصر (ألف) إنما المقصود أنه كان ينسخ تلك القصص ، وهى قصص الأقدمين ، ولا يفوتنا أن أبا الدرداء كان يثربياً وأن تلك القصص كانت تُدَّاع على السنة يهوديها وقد رأيت أن الجوار بين اليهود والأوس والخزرج دام ثلاثة قرون حتى مجيء الإسلام ، لكن ما دام القرآن العظيم جاء بهذه القصص وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل فعلام النسخ والتكلم بها بعد ؟ لِمَ وقد بين لكم هذا

(١) أحسبك تنبه أن النبى (ص) لم يغضب لطلب عمر أو غيره لمزيد من العلم ، إنما هو غضب هكذا لانشغال أصحابه بغير القرآن حيثش ، وإنا رأينا الرسول فى مواضع كثيرة يحث على طلب العلم وعلى تدوينه ، وإنى سأذكر طرفاً من هذا فى فصل قادم .

الكتاب الذى لا يأتيه الباطل أن تغيراً ومحوً وتبدلاً لحق فيما قبله من كتب ؟ وهذا تلمسه من خلال شأن النبى «ﷺ» مع عمر حين جاءه بالكتاب الذى نسخه ، ومن خلال شأن عمر نفسه مع الرجل العبقيسى ، ثم جمعه ما اجتمع عنده من هذه الكتب وحرقها ، ثم من خلال شأن عبد الله بن مسعود .

ويبدو أن الخليفة العادل عمل على القضاء على ترجمة ونسخ ما ترجم من الكتب الأجنبية ، وقد علمنا أن عهده هو العهد الذى صارت فيه الجزيرة العربية إسلامية كلها وانتهى كل دين بها غير الدين الإسلامى ، ومادام الأمر أصبح كذلك فعلا م تبقى آثارهم ، وهى آثار مشوشة ومن ثم رأينا يحرق ما اجتمع عنده من هذه الكتب ، ثم وعظ الناس وخوف من يقبل عليها .

عبد الله بن مسعود وهذا الأمر

يبدو أيضاً أن عبد الله بن مسعود تتبع هذا الأمر أو تابعه بما يشبه تفويضه إليه ، أو أن اقتران اسمه وعدة مواضع فيه تجعل المتأمل يظن هذا .

من هذه المواضع ما هو دونك من أمر الرجل الذى جاءه بصحيفة فيها كلام من كلام أبى الدرداء وقصص من قصصه . ومنها ما ذكره الخطيب البغدادي : أن ابن قرة لما جاء عبد الله بن مسعود بكتاب وقال له وجدته بالشام فأعجبني ، فنظر فيه عبد الله ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم ، ثم دعا بطست فيه ماء فمائه فيه ثم محاه .. ومنها ما رواه عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه أنه قال : أصبت أنا وعلقمة صحيفة ، فانطلقنا بها إلى عبد الله بن مسعود فلما أذن لنا ودخلنا عليه قلنا له : هذه صحيفة فيها حديث حسن ، فقال : هاتها ودعا يا جارية هاتي طست واسكبي فيه ماء ، جاءت به وضعتها فيه وجعل يمحوها بيده ويقول : (الر نحن نقص عليك أحسن القصص) قلنا انظرها فإن فيها حديثاً حسناً .. ويبدو أيضاً أن الناس وقتئذ هبوا للقضاء على هذا الأمر ؛ فمن عمرو بن الميمون الأودي قال ^(١) كنا جلوساً بالكوفة ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقلنا ما هذا الكتاب ، قال : كتاب دانيال ، فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقتل ، وجعلوا يقولون : أكتاب سوى القرآن .

ويؤكد لنا النهى عن هذه الكتب ما جاء فى وصف ^(٢) العلة فى كراهة كتابة الحديث قول

(١) نفس المرجع والباب .

(٢) أيضاً نفس المرجع والباب .

الخطيب البغدادي : قد ثبت أن كراهة من كره من الصدر الأول الكتابة ، إنما هي لثلا يضاهي بكتاب الله كتاب غيره ، نُهي عن الكتب القديمة أن تُتخذ لأنه لا يعرف حقها من باطلها وصحيحها من فاسدها وأن القرآن كفى بها وصار مهيمناً عليها . ولما أراد عمر بن الخطاب أن يكتب السنن استشار فيها أصحابه ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإني لا ألبس كتاب الله بشيء ، وترك كتابة السنن .

لكن يبدو لنا أيضاً في أمر القضاء على الآثار القديمة المكتوبة سواء كان بمحوها بالماء أو الحريق أنه لم يكن متعسفاً ولا متعقباً بما يشبه ما كانت تقوم به (محاكم التفتيش) لدى الأوروبيين في العصور الوسطى ؛ إنما كان يُفعل هذا بالظاهر منها وبعيد عن منال حاملها بالأذى .

أما نظرت إلى قول الخطيب البغدادي : (إنه بلغ عمر بن الخطاب ظهور كتب في أيدي الناس ، فاستنكرها وقال : أيها الناس إنه بلغني أنه قد ظهرت بأيديكم كتب) ، ثم نهى الناس عنها بالوعظ مرة والتخويف أخرى ، ثم رأيت شأن عبد الله بن مسعود في هذا .. ●

من الأثر اليهودي إلى العروبة الخالصة

رأينا العلاقة بين اليهود والمسلمين أخذت تسوء حتى انتهت بجلاء اليهود عن المدينة ، ثم عن الجزيرة العربية ، وكان ينبغى على المسلمين فى بادئ الأمر التفكير فى الانتقال ثم التخلص من الاعتماد على اليهود ، وقد مر بنا أن دور العبادة اليهودية بالمدينة كان يطلق على (المدراس) لقيامها بالتعليم العام مع التعليم الدينى ، ونستطيع أن نلمس هذا بوضوح عندما رأينا النبى ﷺ يأمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغات الأجنبية - على رأى بعض الكتاب - ليخلف به كاتب السر اليهودى ، أو هو من كان ملماً بها من قبل ، وأخلفه النبى ﷺ هذا الكاتب اليهودى ، لكن الأحداث التى مرت بها المدينة فى حياة الرسول ﷺ ، ثم صارت أعظم ضخامة بعد وفاته والتى تمثلت فى حروب الردة ، ثم الفتوحات الكبرى ؛ كانت بلا شك تشغل الرواة ثم كتاب السير والأخبار عما دونها فلا هم يسجلون لنا قيام مدرسة عربية أو كتاب ، وإن كان ورد فى كلامهم ذكر الكتاب ذكراً عابراً وذلك يدل على أنهم لم يعنوا الأمر لذاته ، لكننا رأينا من خلال تلك الأحداث الكبرى عظمة السلف وأثر الكتابة فيهم وحب العلم مما جعلهم رغم انشغالهم بهذه الفتوحات لم يهملوا الجانب التعليمى ، يرسلون إلى العاصمة بالمعلمين وغيرهم لأجل النهضة العربية ، وقد دلنا على ذلك أمر عظيم أيضاً وخطير ، وهو مقتل الخليفة العادل وما أعقبه من غضبة ابنه عبيد الله ، فإنه أثناء تلك الغضبة قتل نفراً كان بينهم معلم من معلمى الحيرة هو جفينة العبادى ، فترى ماذا كان يصنع جفينة بالمدينة إلا المهمة التى أرسله من أجلها ظنَّه سعد بن أبى وقاص وأرسل معه غيره من معلمى الحيرة ، لكن جفينة وحده هو الذى طفا ذكره من المعلمين لأنه كان ضمن النفرة الذين ظنوا أنهم تأمروا على الخليفة وقتلهم عبيد مع أبى لؤلؤة قاتل أبيه ، وقد ذكرت كتب الأخبار والسير أن أمراء الجند كانوا أثناء تلك الفتوحات يرسلون إلى العاصمة المهرة فى كل صنعة ، أفترأهم يهملون صنعة المعلم وهم الذين يقدرون العلم والتعليم ، وهم الذين رأوا كيف خدمتهم الكتابة حين بعدت المسافات بينهم وبين عاصمة الخلافة فكانت هى وسيلة الاتصال بينهم .. ثم إن هناك ما دلنا على أنه يقين وليس احتمالاً ولا ظناً وهو ما قلت منذ قليل أن ذكر (الكتاب) مرّ فى رواياتهم مرّاً عابراً، ففى ذكر أبى أسيد الساعدى يقول ابن سعد ^(١) فى (طبقاته):

(١) الجزء الخامس منه فى (طبقات الأنصار) .

عن عثمان بن عبيد الله قال : رأيت أبا أسيد الساعدي وأبا هريرة وأبا قتادة وابن عمر يمرون بنا ونحن في الكتاب فنجد منهم ريح العنبر وهو الخلق ويصفرون به لحاهم .

لعله كان نظام الكتاب هذا قديماً وليس مستحدثاً في عصر النبي ﷺ أو بعيد وفاته كما دلنا عليه حديث عثمان بن عبيد الله ، قد يكون الأنصار حاكوا اليهود في دور التعليم وأنشأوا كتاتيب ومدارس خاصة بهم ، وجاء عصر النبوة فتما هذا الأمر على طريق العروبة الخالصة ، الحقيقة أن كلا الاحتمالين قائم يعزز دلائل تعليم الصغار في سن مبكرة في العصرين ، وقد رأينا عثمان بن عبيد يحكي إذ كان صبيّاً فيقول : رأيت أبا أسيد الساعدي وأبا هريرة وأبا قتادة وابن عمر يمرون بنا ونحن بالكتاب .

وهناك قصة أخرى من العصر الأول ، وهي قصة أول لقاء لأنس بن مالك والنبي ﷺ عند قدومه إلى المدينة ، ففي (الطبقات الكبرى) أيضاً يقول ابن سعد^(١) : قال أنس بن مالك : أخذت أم سليم بيدي عند مقدم النبي فأتت بي رسول الله ، فقالت : يا رسول الله هذا ابني وهو غلام كاتب .. وفي موضع آخر قالت : يا رسول الله هذا خويدمك وهو كاتب .

وكان أنس بن مالك حينئذ في الثامنة من عمره ، وإن كان طفل يكتب وهو في الثامنة فلا بد أنه ألحق بالتعليم وهو في الخامسة أو السادسة على الأقل ، ولا بد أنه كانت هناك دور ترعى هؤلاء الأطفال تعليمياً ، ويمرّز هذا أن حجتنا ههنا كان من رهط بسطاء ليس في استطاعتهم المجيء بمعلم خاص ، إذن فقد كان هناك تعليم شبه عام يلاءم عصرهم وحياتهم وكانت هناك دور مفتوحة للأطفال سواء عربية أو يهودية تعنى بالتعليم غير الديني كما ذكر .

وحين نزل النبي ﷺ بالمدينة تمت الدور العربية بلا شك ، ثم أعطيت الاهتمام الأكبر إبان شروق النبي ﷺ في التخلص من الأثر اليهودي وغير اليهودي ويكون الأمر عربياً خالصاً ●

(١) نفس الجزء السابق .

متفرقات في وسائل رقى الكتابة

الخاتم

هو ما يعرف عند الكثيرين منا اليوم ، أو صار ينطقه الكثير منا (الختم) وهو ما نختم به الوثائق وغيرها ، وقد مرّ بنا أن النبي ﷺ عندما أراد مراسلة الملوك والأمراء الأجانب والعرب ويدعوهم إلى الإسلام اتخذ خاتماً من فضة ، نقشه ثلاثة أسطر (محمد رسول الله) وفي التنبيه والإشراف يقول أبو الحسن المسعودي : اتخذ النبي ﷺ الخاتم في المحرم من السنة السابعة وتُعرف بسنة الاستغلاب ، ونقش عليه (محمد رسول الله) وكاتب الملوك ، وافتتح كتبه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي قال : حدثني جعفر بن محمد عن أبيه أن النبي ﷺ طرَحَ خاتمه الذهب ، ثم تختم خاتماً من ورق^(١) فجعله في يساره .. ويقول سلمان الفارسي : أتيت النبي ﷺ وهو في جنازة رجل من أصحابه فلما رأيته قال : دُرُ خُلْفِي وطرح رداءه فرأيت الخاتم وقبلته .

وعن ابن عمر قال : اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ورق فكان في يده ثم كان في يد أبي بكر من بعده ففِي يد عمر ففِي يد عثمان حتى وقع في بئر أريس فطلبناه فلم نقدر عليه .

وقد اتخذ أمراء النبي ﷺ في حياته الخواتيم يختمون بها مكاتيبهم ، وقد مرّ بنا أن زياد بن لبيد قال للأشعث^(٢) بن قيس ومن خرجوا معه : اكتبوا ما شئتم وأختمه لكم .

وذكر أن معاذ بن جبل لما قدم من عمله باليمن ، قدم وفي يده خاتم من ورق نقشه (محمد رسول الله) ، فقال النبي ﷺ : ما هذا الخاتم ؟ أجاب معاذ : يا رسول الله إني كنت أكتب إلى الناس كتباً فأخاف أن يزداد فيها أو ينقص منها فاتخذت خاتماً أختم به .

ويبدو أن هذا الأمر كان منتشرأ بين القرشيين حتى قيل للنبي : إن الناس ههنا كأنهم يريدون العجم لا يجرون عندهم كتاباً إلا وعليه طابع^(٣) ، فقال النبي ﷺ : لا ينقش أحد على نقش خاتمي .

(١) (ورق) يعني فضة .

(٢) في ردة اليمن الثانية .

(٣) يعني طبعة الخاتم .

وكان لحنظلة أحد كُتّاب النبي ﷺ خاتم، ورأينا الخاتم أعظم انتشاراً عند خلفاء النبي ﷺ، وبدأ شأنه خطير عند الخليفة الثالث وكتابه مروان بن الحكم في أمر مكتوب كتبه للثائرين على الخليفة، وقيل غافل عثمان (ر) وخاتمه بخاتمه .

وكانت معرفة العرب بالخاتم قديمة . وورد ذكره في بضعة أبيات قالها امرؤ القيس بعد أن اعتلّ وهو قافل عن أنقرة :

ترى أثر القُـرُح في جلده كنقش الخواتم في الجرجس^(١)

وقيل إن المناذرة كانوا يختمون مكاتيبهم ، وكذلك الغساسنة .. وهذا أمر طبيعي لعلاقتها الوثيقة بأكبر وأرقى دولتين وقتئذ . وقد رأيت أن القرشيين كانوا يكثرون من هذا ، حتى قيل لا يجرون عندهم مكتوباً إلا وعليه طابع .

المهرق

مرّ بك الحديث عنه وقد رأيت أن أصله قطعة من حرير تعد وتصل بالصبغ ثم بالخرز ويكتب فيها ، وتلك أداة راقية جداً للكتابة عرفها العرب وأكثروا الحديث عنها في أشعارهم ، ولك أن تعلم أنه أغلى مكتوب كان يتخذه الفرس وقتئذ ، إذ كان خاصاً بكتابة النصوص الدينية عندهم وكانت الكتابة عليه سنة متبعة ، وإن كانت منزلة المهرق على هذا النحو عند الفرس وقد اتخذه العرب لبعض أغراضهم الكتابية . فترى أى رقى وترف هذا ؟

القُطم

هى الصفحات البيضاء وأصلها من الجلد الأبيض ، وقد ذكر الزمخشري في (الفائق) : أن الوحي كان يكتب في عهد النبي على القُطم .

الكراريس والقراطيس والورق عموماً

قد مرّ بك أن حماداً الراوية قال : إن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب في (الكراريس) . وقد أنكر على الرجل قوله ، أى التدوين في الكراريس ، وكنت ذكرت أن هذا ليس

(١) (الجرجس) الصفحة التي يكتب بها ، وتجده هذه الأبيات بديوانه ، وتجدها أيضاً في شرح (المعلقات السبع الطوال) لابن الأنباري أثناء الحديث عنه .

بمستبعد عن الحيرة منشأة الفرس وريبتها ، ومخرجة أبناءها كتبة وتراجمة فى دواوين الفرس .

وما نحسب أن امبراطورية الفرس تخلفت عن الورق الذى عرفه الصينيون على يد (تس أى لون) فى بداية القرن الثانى الميلادى ، ثم جرى استعماله قبل نهاية القرن نفسه لما بينهما من جوار وعلاقات رفيعة المستوى ، بل إننا رأينا المسلمين فى عصورهم الأولى ينسبون الورق إلى (خراسان) وهو إقليم فارس . وعلى هذا لا يكون الفرس عرفوا الورق الصينى وحسب ، بل واتخذوا له مصانع فى بلادهم . وبما رأينا من منزلة مملكة لحيرة عند الفرس ، وبما رأينا من موقعها العلمى فلا نظنهم غفلوا أو تغاضوا عن هذه الوسيلة السهلة الراقية ، وعن طريقهم انتقل إلى سائر العرب شأنه شأن المهرق وغيره .

وهناك وسيلة اتصال أخرى عن طريق القريشيين الذين رأيناهم يخرجون بقوافلهم التجارية إلى بلاد الفرس ويمعنون حتى حدود الصين ، بل قيل إنهم عرفوا الصين نفسها .

وهل سيرة القريشيين التى مرت بك تجعلهم يتغافلون عن الورق تجارة أو استعمالاً ؟ أعنى أنهم إذا لم يكونوا احمولوه بغرض التجارة ألا يحملونه لما تستدعيه حاجتهم الكتابية .

وقد جاء ذكر الورق فى النصوص الجاهلية كثيراً كذلك ورد فى القرآن ، لكنه لم يأت بما يعيننا هنا ، إنما بمعنى ورق الشجر مرة وبمعنى الفضة أخرى ، أو النقود الفضة ، لكننا عناء بيت من الشعر أورده ابن هشام لحسان بن ثابت فى ذكر يوم (القليب) فى مطلع قصيدته البائية :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي فى الورق القشيب

ويصدق لدينا أنه الورق الذى يعنينا ما سبق اللفظ وما تبعه من ألفاظ (فالوحي) يعنى الكتابة وسبق لفظ الوحي (الخط) وأعقبه (القشيب) ومعنى القشيب الجديد . إذن فهو (كخط الكتابة فى الورق الجديد) فلا مجال للشك هنا أنه ورق الكتابة .

وما يعزز هذا أن ابن النديم ذكر أنه رأى أوراقاً يحسبها من ورق الصين ^(١) بخط يحيى بن يعمر .. ويحيى هذا توفى سنة تسعين هجرية ، وما نحسب أنه كتبه وهو على فراش الموت فقد يكون كتبه قبل هذا التاريخ بعشرين سنة أو بأكثر أو أقل ، وهذا دليل على معرفة العرب للورق الصينى قبل أسرههم للصينيين بعقود ، ويقال لما عزم عثمان بن عفان (ر) على كل رجل معه من كتاب الله شىء أن يذهب به إليه ، وكان الرجل يجيئه بالورقة والأديم فيه القرآن .

(١) فى (الفهرست) وهو مما استشهد به دكتور ناصر الدين الأسد وقد تناولته بالزيادة والإيضاح .

وقال عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب (ر) : كنت أكتب المصاحف فى عهد أزواج النبى ، فاستكتبتنى حفصة بنت عمر مصحفاً لها ، فلما بلغت إليها بالورقة والدواة .

وسئل ابن الحنفية عن بيع المصاحف ، فقال : لا بأس أن تباع الورق . وكان مطر بن طهمان مولى على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) يُعرف بمطر الوراق .

وجاء فى ذكر عبد الله بن عامر أنه قال لمعاوية بن أبى سفيان (ر) حين طلق هنداً بنت معاوية : فرأيت أن أردّها إليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف .

ولا نحسب أن ابن عامر يقصد إلى تشبيه وجه ذلك الفتى بالجلد وإلا كان وجهه صفيقاً متيناً ، لكنه قصد إلى أنه ذلك الوجه فى نضارته ورونقه وبهائه كالورقة المجلوة .

ثم إنك رأيت أن الرجل كان يحىء عثمان بالورقة والأديم ، وهذا دليل على أنهما نوعان لا واحد ولو كانت الورقة المعنية من جنس الأديم ما كان فصل بينهما هذا الفصل القاطع ولكان قال : وكان الرجل يجيئه بأنواع الأديم الورق منه والصفيق ، أى الرقيق والصدىق ، والأبيض والقاتم والمدبوغ وغير المدبوغ وهكذا .

لكنه ما قصد هذا ، إنما قصد أن الرجل كان يحىء بجنس الورق وبنسب الأديم .

ومن تشبيه حسان وتشبيه ابن عامر نستدل على أنهم عرفوا أحسن أنواع الورق وأرقاه وإلا ما كانوا شبهوا به الوجوه الجميلة النضرة . ويؤكد هذا قول المخبل السعدى يصف وجه صاحبه ويشبهه بالصحيفة قبل أن يكتب عليها :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمآن مسخّلتج ولا جسم

القرطاس

وجمعه (قراطيس) وقيل هو (ورق البردى) وهذا النوع من الورق لا يتطرق إليه شك بأن العرب قبل الإسلام عرفوه واستعملوه وأكبر دليل على هذا وروده فى القرآن الكريم (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ، (ما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس نجعلونه فى قرطاس تبدونها وتخفون كثيراً) ... وهذا الورق أعظم حضارة من ورق الصين ومن كل ورق حيثئذ ، وكان يصدر عن مصر العظيمة التى دونت عليه كل كتاباتها

من الأسفار المقدسة والحكمة والوعظ والإرشاد إلى المعاملات اليومية البسيطة مروراً بالحسابات الكبيرة ، والشعر والقصص والخطب وكل دواعي الكتابة ، ولعل المطلع يرى أن معرفة اليهود به أقدم من أن يعرفوه عن طريق اليونان والرومان إذ كانت إقامتهم بمصر أبعد عهداً من هذا ، ولا نحسب اليهود وحدهم هم الذين عرفوا هذا الورق حيثئذ ، إنما عرفه أناس كثيرون من أمم مختلفة من خلال موقع مصر الحضارى .. ناهيك عن الغزاة الذين غزوا مصر وأبرزهم قبل اليونان والرومان الفرس ، فليس من شك أنهم عرفوا هذا الورق وحملوه إلى بلادهم ، وربما كانوا مستوردين له فيما بعد ، لكن كانت السنة المتبعة عندهم هي كتابة النصوص المقدسة بالمهاريق وتلى المهاريق الرقوق فلم يبرز ذكر البردى عندهم أو لم نلقه من خلال الروايات العربية .

أما معرفة العرب بورق البردى فمتأخرة عن هذا بكثير جداً ، لكنها كانت قبل الإسلام على العموم ، وقيل عرفوه عن طريقين ، طريق اليهود الذين كانوا يسجلون عليه كتاباتهم الدينية ، وطريق تجارة قريش إلى الشام . وكلاهما صحيح على وجه العموم ، لكن لا يمنع أن يكون العرب عرفوه من خلال طرق أخرى غير هذين الطريقين ، فنحن رأينا أن العلاقات بين العرب وغيرهم كانت قائمة ، ورأينا طلاب العلم الحيريين يقصدون المدارس العليا بربوع الشام وكان هذا الورق منتشراً بالشام وأقام له الرومان مصانع بها ، ثم إننا رأينا بيت الشعر الذي نستشهد به قادم من شرق الجزيرة العربية . وعرف العرب هذا الورق في صورة معدة مواظمة للكتابة ، أى عرفوه بعد مراحلها الصناعية ؛ ناعم الملمس .. حسن الشكل ، فشبهوا به ونسبوه إلى مصانعه أو مصادره إليهم لا مصدره الأصلي .

انظر إلى البيت الذى ورد فى معلقة طرفة بن العبد :

وخذ كقرطاس الشامى ومشفر كسبت اليماني قدّه لم يجرد

وقوله (وخذ كقرطاس الشامى) يعنى وخذ كقرطاس الرجل الشامى فحذف الموصوف اكتفاءً بدلالة الصفة عليه .

وهو يشبه خدّ ناقته فى النعومة والانغلاص بالقرطاس .

والأدل على أن معرفة العرب عن طريق الشام هو المسمى نفسه ، فلفظة (قرطاس) مصحفة عن الأصل اليونانى (خرتاس)^(١) والذى عرف فى اللاتينية (خرتّا) ، وهذا ما أشرت إليه أنهم نسبوه إلى مصانعه أو مصادره إليهم لا مصدره الأصلي . وليس معنى هذا ألا يكون العرب عرفوا أصله ،

(١) دكتور محمد طه الحاجرى فى مؤلفه (الورق والوراقة فى الحضارة الإسلامية)، مطبوعات المجمع العلمى العراقى .

بل منهم من عرفه ووقف عليه ، مثل القريشيين الذين كانوا ينزلون مصر للتجارة ، وقبلهم بكثير عرفه اليمينيون ؟ إذ كانت لهم إقامة دائمة بمصر واتصال رفيع بسرّاتها .

وأيضاً نزول التجار المصريين والشاميين بمنطقة الحجاز لا سيما مكة ضمن من كان ينزلها من الأمم ، وما نحسب هؤلاء إلا كانوا يحملون معهم قراطيسهم ، وأدنى الدواعي لهذا حساباتهم التجارية .
وخير دليل نستشهد به دائماً هو القرآن العظيم وها أنت رأيت ذكر القرطاس به ، ثم ذكره ^(١) بمعلقة طرفة . وتلك أدلة قاطعة على اتخاذ العرب هذه الأداة الراقية الحضارية في كتاباتهم .

القلم والدواة والمداد

نعرف جميعاً ومن أول وهلة أن العرب قديماً استعملوا القلم ولا نشك في هذا ، فأول الوحي جاء فيه ذكر القلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم) . وورد أيضاً ذكره في سورة "القلم" (ن والقلم وما يسطرون) ، وفسر بعض العلماء (ن) بأنها (الدواة) ، وجاء ذكر القلم والدواة في غير هاتين السورتين كما مرّ بك ، كذلك جاء في أشعارهم التي مرت بك أيضاً وأقدم إليك بعضاً آخر هنا ، يقول عدى بن زيد :

له عنق مثل جذع السحو ق والأذن مصنعة كالقلم
وقال ليبد بن ربيعة :

متعود لحن يعيد بكفه قلما على عسب ذبلن وبان
وقال الزبرقان بن بدر :

هم يهلكون ويبقى بعد ما صنعوا كأن آثارهم خُطتْ بأقلام
وقال الشماخ :

كما خط عبرانية يمينه بتيماء حبر ثم عرض أسطرا
وقد ورد المداد باسم النفس

لمن الديار بجانب الحبس كخط ذى الحاجات بالنفس
(ورد في كلامهم ذكر المداد والحبر معاً وذلك في قصيدة عبد الله بن عَمّة التي

(١) التعقيب هنا تعقيب منزلة .

مدح بها الخوفزان :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كما رُدَّ خط الدواة مدادها

وأحسبك تذكر أنى قلت أن البطليموس والقلقشندى والصولى تحدثوا عن أدوات الكتابة وأسهبوا ، لكن فى نظرة سريعة على القلم الذى كان يستعمل لديهم وقتئذ ، فإنه كان يقطع من الغاب ويُقلم ويُبرى فهو (قلم الحبر) ويبدو أن صناع هذا القلم بلغوا به مبلغاً حسناً فى الإحكام والدقة وجعلوا سنه لا يختلف عن سن القلم الذى نعرفه اليوم ، ويدلنا على هذا أن الصحابة ومتبعى الحديث كانوا يكتبون به على أكفهم جُملاً ، ورب حديث ، وذلك حين كان تمتلئ الصفحات التى حملوها معهم لهذا الغرض ، وذلك مخافة أن يفوتهم شئ مما يُلْقَى عليهم . ولعلك ترى لو لم يكن للقلم من الإحكام والدقة مبلغاً رقيقاً لما استطاع هؤلاء أن يكتبوا الحديث على أكفهم وغير أكفهم مما هو ليس معداً للكتابة فى هذا الموضع الحرج .. وربما كانت هناك غير أقلام الحبر مما تستدعيه دواعى النقل لا سيما التنقل المفاجئ ، فليس الحال الذى خرج عليه النبى ﷺ وصاحبه (ر) مهاجرين يستدعى حمل (دواة الحبر) ، لكننا رأينا النبى يأمر أبا بكر أن يكتب لسراقة بن مالك (كتاب الأمان) الذى طلبه ، فكتب أبو بكر ، وأخذ سراقة المکتوب ووضعه فى كنانته . إذن فقللم هذا الحال يكون ملازماً للرحل أو العمامة أو المنطقة ^(١) ، وربما كان هذا القلم من الرصاص أو مادة أخرى جافة وتدوم ، وعليه أستبعد أن يكون من الفحم ، فالفحم لا يدوم وقد رأينا سراقة طوى كتاب الأمان الذى أخذه من النبى ﷺ ووضعه فى كنانته ليواريه فيما بعد بمكان آمن ليبرزه عند الضرورة ، وقد يمر على الاحتفاظ به عام أو عامان أو عشرة ، أو حتى عقود ، أما إن كانوا توصلوا للفحم الخاص فى هذا الحين أو عاجلوه كيميائياً لكى يدوم فهؤلاء إذن قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الرقى .. ثم إنى لا أستبعد استعمالهم للفحم كلية ، إنما حسبما يقتضيه الحال .

وكان الحبر يُصنع من السناج وكان له بضعة ألوان كما سيدلنا على هذا الحديث اللاحق عن أبى الأسود الدؤلى .

كمال الحروف والجمل

قصدت بكمال الحروف والجمل وجود النقط والعلامات والفواصل بها قبل الإسلام ، وقد

(١) التى يتمنطق بها الرجل وتكون حول وسطه .

رأينا في معرض الحديث عن الخط العربى أنهم قالوا : إن عامر بن جذرة أزال العجمة وعرفنا أن إزالة عجمة الكتابة تنقيطها لتوضيح حرف الخاء من الخاء والجيم وهكذا ، ولا يعني أن كان عامر حقيقة أم وهما . إنما ما يعني أنهم قالوا هذا من يقينهم بأن النقط كانت موجودة قديماً وأن الذين نقلوا هذه الرواية نقلوها عن ابن عباس كما مرّ بنا ، ثم إن في قول ابن عباس نفسه دليلاً على أن النقط كانت موجودة ، أى كلام ابن عباس بإزالة العجمة ، وقول ابن عباس سابق على شروع أبى الأسود الدؤلى بوضع الإعراب والنقط التى كانت تعمل عمل الحركات والسكنات ، وأبو الأسود فعل هذا بعدما دخل العنصر الأجنبى فى تعلم العربية والتحدث بها ، بل وخالف العربى مخالطة لا تنفصل ، وأنه سمع قارئاً يقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسوله) فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل إلى ذلك ، وأراد أن يصنع كتاباً فى العربية يقوم الناس به ما فسد من كلامهم . فرأى أن يتدبّر بإعراب القرآن ، وأحضر من يمسك المصحف وأحضر معه مداداً يخالف لون المداد المكتوب به وقال لماسك المصحف : إذا فتحت فمى فاجعل النقطة فوق الحرف وإذا كسرت فمى فاجعل النقطة تحت الحرف وإذا ضمنت فمى فاجعل نقطة أمام الحرف ، وإذا أثبتت شيئاً من ذلك غنة (يعنى التنوين) فاجعل نقطتين .. ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف . إنما يقال إن أبا الأسود لم يضع^(١) علم العربية كما يتوهم الكثيرون وأن هذا العلم وضع قبل خلافة على بن أبى طالب (ر) بل وقبل الإسلام ، ثم إن أبا الأسود لم يستحدث تلك النقط الدالة على العلامات للإعراب وأن هذه العلامات وغيرها كانت موجودة أيضاً ، وكانت بالقرآن وجردت منه .

ويؤكد هذا ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : جردوا القرآن ليربوا فيه صغيركم ولا يتأى عنه كبيركم ، وقد شرح الزمخشري قوله هذا بأنه أراد تجريد القرآن من النقط والفواتح والعشور مخافة أن ينشأ نشء فبرى أنه من القرآن .

وما روى عن ابن الجزرى أنه^(٢) قال : إن الصحابة لما كتبوا المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن فى العرضة الأخيرة مما صح عن النبى ، وإنما أدخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين .

وقد مرّ بك أن البطليموس ذكر أن العرب قبل الإسلام عرفوا النقط واستشهد بعدة أبيات هى دون يدبك فى الصفحات السابقة ، وذكر هذا أيضاً أبو على القالى فى (أماليه)^(٣) .

(١) سيتضح هذا تواتراً .

(٢) استشهد به دكتور ناصر الدين الأسد (مصادر الشعر الجاهلى) .

(٣) الجزء الثانى من (أمالى) القالى .

والأعلم الشنتمرى من خلال شرحه لديوان طرفة بن العبد . وثمة ما هو أعظم دلالة من هذا وذاك وهو السبيل^(١) الحديث الذى ذكر أنه توجد (بردية) ضمن مجموعة برديات تُعرف بمجموعة (الأرشيدوق رينر) بمكتبة فينا الأهلية مؤرخة بعام ٢٢ هـ كتابتها العربية منقطة .

ونحسب أن كل ما جاء بعدها كانت محاولات تجديد حتى كان عصر عبد الملك بن مروان حين وجدوا لها داعياً ملحاً فثبتوها .

ورغم هذا فالتجريد ظل موجوداً ويبدو أنه كان عند الذين يتراءون بالعلم ، وعند بعض الذين يُجتلون المرسل إليه ، إذ كان يُنظر للمكتوب المنقط المشكل على أنه تقليل من شأن المرسل إليه ، أو يلقاه المرسل إليه تحقيراً له ، أى وضع موضع من لا يجيد القراءة إلا إذا كانت منقطة مشكلة . وتلك كانت معيبة حينئذ .

وظل هذا الشأن كله موجوداً حتى بعد عصر عبد الملك بكثير ، انظر إلى قول أبى نواس فيه :

يا كاتباً الغداة يسبنى من ذا يضيق براعة الكتاب
لم ترضى بالإعجام حين كتبت حتى شكلت عليه بالإعراب
أحسست سوء فهم حين فعلته أم لم تشق بى فى قراءة كتاب ؟

أما تلك النقط التى وضعها أبو الأسود الدؤلى دلالة على الإعراب فكانت معروفة قبل الإسلام ويقال^(٢) إن اليعاقبة هم الذين نقلوها إلى العربية عن السريانية لضبطها حين شرعوا يكتبون مصاحف الإنجيل ●

(١) الأستاذ إبراهيم جمعة (قصة الكتابة العربية) .

(٢) محمد فخر الدين فى (تاريخ الخط العربى) ، واليعاقبة نسبة إلى البابا يعقوب البردعى منشئ الكنيسة العربية القائلة بالمذهب المنوفيسى .

دعوة قديمة حديثة

يبدو أن الذين يعممون عرب ما قبل الإسلام بأمية القراءة في كل زمان ومكان ، فيها هو أبو الحسن أحمد بن فارس يرد على نفر منهم منذ أكثر من ألف سنة ، فنراه يقول في باب (القول على الخط العربي) : وزعم قوم أن العرب لم تعرف هذه الحروف بأسمائها وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ، قالوا والدليل على هذا ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل ، فقال : إني إذن لرجل سوء ، قالوا إنما قال ذلك لأنه لا يعرف من الهمز إلا الضعف والعصر . وقيل لآخر : أنجر فلسطين ، فقال : إني إذن لقوى ، قالوا : إنما قال ذلك لأنه لا يعرف إلا جر الأشياء . قالوا : وسُمع بعض فصحاء العرب ينشد : نحن بنى علقمة الأخيار . فقيل له : لم نصبت بنى ، فقال : ما نصبته وذلك لأنه لم يعرف من النصب ^(١) إلا إسناد الشيء . وحكى الأخفش عن أعرابي فصيح أنه سئل أن ينشد قصيدة على الدال ، فقال : وما الدال ، وحكى أن أبا حية النمرى سئل أن ينشد قصيدة على الكاف ، فقال :

كفى بالناس من أسماء كاف وليس لسقمها إذا طال شاف

يرد ابن فارس على هذا فيقول : إن الأمر في هذا بخلاف ما ذهب إليه هؤلاء ، ومذهبنا فيه التوقيف . فنقول : إن أسماء الحروف داخلة في الأسماء التي أعلم الله أنه علمها آدم ، قال عز وجل (علمه البيان) . فهل يكون أول البيان إلا علم الحروف التي يقع بها البيان ، ولم لا يكون الذي علم آدم الأسماء كلها هو الذي علمه الألف والباء والجيم والدال ؟ فأما من حكى عنهم من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والدال والكاف ، فإننا نزعم أن العرب مدرأ ووبرأ قد عرفوا الكتابة والخط والقراءة .. وأبو حية كان أمياً ، وقد كان قبله في الزمن الأطول من يعرف الكتابة والخط ويقرأ وكان من أصحاب النبي ﷺ كاتبون منهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب وزيد وعثمان وغيرهم ، وحدثنى أبو الحسن عن هانئ عن علي بن إبراهيم القطان قال : كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها (لم يتسن) (فأمهل

(١) كان القياس أن تجيء كلمة (بنى) مرفوعة على أنها خبر المبتدأ ، لكنه نصبها هنا على الاختصاص بفعل محذوف هو (أخص) والنصب على الاختصاص يكون في بعض مواضع منها التي دوننا ، أي بعد ضمير المتكلم .

الكافرين) و (لا تبديل للمخلوق) . قال فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب (لخلق) ومحا (فأهل) وكتب (فمهل) وكتب (لم يتسنه) وألحق بها هاء ، أفيكون جهل أبي حية حجة بالكتابة على هؤلاء الأئمة . والذي نقوله في الحروف هو قولنا في الإعراب والعروض والدليل على صحة هذا هو أن القوم تداولوا الإعراب ولنا أن نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شأقتك أظعان لليلى يوم ناظرة بواكر

ستجد قوافيها كلها عند الترجم والإعراب نجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقاً بغير قصد لا يكاد يكون ، فإن قال قائل : لقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود الدؤلى أول من وضع علم العربية ، وأن الخليل أول من تكلم في العروض ، وأول من وضع علم العربية ، قيل له : نحن لا ننكر هذا ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً وأنت عليهما الأيام وقللاً في أيدي الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا في الإعراب أما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن القرشيين لما سمعوا القرآن قالوا ، أو قال بعضهم : إنه شعر ، فقال الوليد بن المغيرة منكرأ هذا : لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقرء الشعر ، هزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك .

أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟ .

وقوله نستقرئ يعنى نتتبع ونحصى ، وقصيدة الخطيئة التي استشهد بها ابن فارس تتجاوز الأربعين بيتاً قالها يمدح بغيضاً ويهجو الزبرقان وتجدها بديوانه بشرح ابن السكيت والسكري ، ودونك شيء منها لتقف على ما قال ابن فارس :

أشأقتك أظعان لليلى	يوم ناظرة بواكر
فى الآل يرفعها الخدا	ه كأنها سحق مواكر
كظباء وجرة ساقهن	إلى ظلال السدر ناجر
وقدت به الشمرى فأ	لفت الخدود بها الهواجر
يا ليلة قد بيتها	بجدد نوم العسين ساهر
وردت همومها	ولكل واردة مسصادر
إما تباشرك الهمو	م فإنها داء مخامر
ولقد تقضيها الصرمة	عنك القلق الغدافر
هلاً غضبت لرحل جا	رك إذ تنبذه حضاجر
أغررتنى وزعمت أنك	لا بن بالصف تامر

إن هذه الأبيات ووبها مقيد (ساكن) ، وإنك لو شئت أن تترنم لجاء فى موضع رفع فى القصيدة كلها وما يحدث أى خلل ، ولولا علم الخطيئة بالإعراب ولولا أن هذا العلم كان متداولاً لجاء هذا مرة مرفوعاً وأخرى منصوباً وهكذا ، وإنى قد وضعت فوق علامة الكسوة علامة الرفع لتقرأها مرفوعة ، ودونك ديوان الخطيئة ليصدق عندك هذا . ثم إننى قدمت إليك غير الوليد ممن تحدثوا بموسيقى الشعر مثل أنس الغفارى^(١) أخى أبى ذر ومثل قيس بن نسيبة السلمي ومثل ما جاد فى كلام الثرييين ، وما نحسب هؤلاء كانوا وحدهم المتحدثين بهذا العلم إنما هم الذين طفت بهم الأحداث والدواعى الظهورية ، ولا ننسى أن الوليد وقيس وأنس تحدثوا إلى آخرين وما نظن أنهم كانوا يحدثونهم بما لا يعرفونه ، ألم نر الوليد تحدث بضمير المتكلم للجمع ، وهل نظن أنه كان يعظم نفسه هنالك وهم يناقشون هذه القضية المصيرية ويقول (نحن) أم كان يعنى بتلك الصيغة نفسه وغيره من الحاضرين : (نحن عرفنا الشعر كله ؛ رجزه وهجره وكذا وكذا) ، وهل كان لتلك الصيغة شيوع آنذا ؟

وأصدقك الحديث بأننى حين قرأت قول الوليد هذا وثب إلى خاطرى أن الخليل لم يضع هذا العلم إن كان تحدث به شخص سبق مولده بأكثر من مائة سنة وذلك قبل أن أسعى إلى (الصاحى) وأقرأ حديث ابن فارس الذى بين يديك وقبل أن ألقى حديث أبى ذر عن أخيه أنس وكذلك حديث قيس السلمي إلى قومه ، والثرييين للنابعة وما ذكر عن غير هؤلاء فى نقد الشعر ، وهذا الذى وثب إلى خاطرى كان سيثب إلى خاطر أى قارئ للأدب العرب والسيرة ، ولملم بشيء من موسيقى الشعر .

وكان وما زال يقال لنا أن الشاعر الجاهلى والإسلامى حتى العصر الأموى كان يمكنه أن ينشد قصيدة قد تتجاوز المائة بيت من بحر واحد وقافية واحدة دون أن يعثر بها أدنى خلل ، بل كان يمكنه هذا ارتجالاً لأن الأمر عندهم سليقة وأنهم مطبوعون على هذا وأنهم لم يعرفوا أيًا من علوم العربية .

ونحن إذا ما تطرقنا إلى تناول القدماء لموضوع الشعر ونشأته سنرى أحاديثهم فيه أشبه بأحاديثهم فى موضوع نشأة الخط العربى . أى أحاديث أكتنفها الخلط والتضارب بعيدة عن الوجه

(١) ورد فى ذكر إسلام أبى ذر الغفارى أنه قال : قال لى أخى أنس إن لى حاجة بمكة ، فأنطلق فراث ، فلما عاد قلت : ما حبسك ، قال : لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس عنه ، قال : يقولون ساحراً ، كاهناً ، شاعراً ، فوالله لقد وضعت قوله على أقرء (قوافى) الشعر فلا يلتزم على لسان بعيد أنه شعر . ويعنى أنه قارئ بين شيء من القرآن وبحور الشعر فلم تكن بينهما ملائمة . ومفرد أقرء (قُرء) .

الصحيح أو بعيدة عن أن يبينوا من خلالها الوجه الصحيح فيما نسبوه ، ولا النحو الذى كانت عليه صورته الأولى ومراحل تطورها حتى وصل إلى الصورة التى نعرفها فى شعر امرئ القيس ومهلل وعبد الفحل وعبيد بن الأبرص .. تضاربوا فى أول من أنشأه وتضاربوا فى صورته الأولى وكيفية تطوره ، قال فريق منهم أن مهلهلاً هو أول من هلل الشعر وهو لذلك أطلق عليه مهلهلاً وكان ذلك فى عهد هاشم بن عبد مناف ، بينما زعم فريق آخر أن نشأته ترجع إلى يمن ، ويؤمن هو يعرب بن قحطان وأنه نقله من الصحف السريانية إلى العربية . بينما يشط بنا فريق ثالث ويتجاوز كل الأسلاف ولا يتوقف إلا عند أبينا (آدم) فينسب إليه نشأة الشعر ، وجاءوا بشعر نسبوه إليه وأنه قاله حين سكن الأرض :

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نعود
وأخر قاله حين قتل قابيل أخاه هابيل :
تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغير قبيح

ولعل ما طالعنا به الصحف الحين بأن العلماء الإفرنج توصلوا إلى معرفة موطن (آدم) هو (جنوب إفريقيا) ^(١) يؤكد بأن هذا ضرب عشواء ، وإن كان نسب هذا الشعر لآدم (ع) لا يصدقه العقل أصلاً .

أما صورته فقليل إن أصلها كانت رجزاً وقطعاً وأن مضر بن نزار أول من قاله حين سقط من فوق جمل وانكسرت يده فجعل يقول : وايداه وايداه .

وكان حسن الصوت ، فأصغت الإبل وجدت فى السير . فجعلت العرب مثلاً لقوله (هايدا هايدا) يحدون به الإبل .. وزعم آخرون أن العرب كانت تتكلم أولاً الكلام المرسل ، ثم تدرجت العرب منه إلى الكلام المسجع ثم منه إلى الرجز ، ثم إلى القصيد ، ثم نوعت القصيد بحسب

(١) طالعت هذا فى صحيفة الأهرام الصباحى بأول صفحة ، وللأسف أننى لا أذكر تاريخ صدور هذا العدد فارجع إليه وأذكر كيفية توصل العلماء الإفرنج لهذا ، ثم أشير إليك به فترجع إليه إن كان يعينك الأمر ولعل سبب عدم اهتمامى بهذا أننى كنت أستبعد التنويه إلى تضارب القدماء لنشأة الشعر العربى ، ثم بدا لى أن أذكره على هذا النحو السريع بعد أن مضيت فى الأمر هذا المضى ، غير أنى أذكر أن صدور العدد كان فى يوم من أيام أكتوبر ١٩٩٧م أو رب بعيد هذا أو قبله .. ثم إننى قرأت العنوان فحسب ، ولا أدري إن كان الخبر تطرق إلى موضوع منطقة (السافانا) أم لا ، (والسافانا) تمتد من شمال كينيا وجنوب غرب أثيوبيا قرب بحيرة رودولف ، والمعتقد أنها موطن أول إنسان على الأرض .

أغراضه حتى بلغت الأوزان التي جمعها الخليل بن أحمد وهي خمسة عشر وزناً ، ثم استترك
الأخفش وزناً آخرًا فكان ستة عشر .

تلك إشارة سريعة ومختصرة عمّا قيل في نشأة الشعر وصورته الأولى لأنه لا يعيننا هنا
الإسهاب فيه والوقوف على الصحيح أو القريب من الصحة في هذا التضارب وحسبنا الذي بين
أيدينا من شعر أنشئ قبل الإسلام بقرن ونصف وجاء غالبه في صورة تامة من حيث موسيقاه
وأغراضه ، وحسبنا الذي بين أيدينا ممن تحدثوا ببحوره والذين تحدثوا بخلل فيه في تلك الحقبة ،
وقد مرّ بك هذا . ومن ثمّ لا يكون الشعر اعتمد على الفطرة والغريزة وحسب ؛ إنما كانت هناك
دراسة لهذا ، ثم وضعت أصوله ، وعليه كان نقد الثوريين للناطقة الديباني ، وذكر نقد مثله
ومختلف عنه في مواضع أخرى ^(١) وقد رأيت أن نقد الثوريين جاء تحت مسمى اصطلاح عليه هو
(الإقواء) وأن ما رأيت من شأن الثوريين والناطقة هو شأن الدارس أو الملم بعلم (موسيقى الشعر)
والشعراء ، أي قد يضطرب الوزن على الشاعر الرقيق المطبوع ، أو شيء مما يعيب القافية ويبينه له
الدارس الذي لا يستطيع قول الشعر .

وهناك دليل آخر يدلنا على أنهم كانوا يتخذون أصولاً وضعية يرجعون إليها ، وهذا الدليل
يتمثل في (لزوم ما لا يلزم) الذي ورد في قصائدهم ، وكما تعلم أن لزوم ما لا يلزم هو في الغالب
حرف يلزم الشاعر به نفسه قبل (الرّوي) في القصيدة كلها أو بعضها ، فمثلاً لو كان الرّوي باءً
ويأتى الشاعر بياء قبله أو لام ويلتزم بهذه الباء أو اللام في القصيدة كلها قبل الرّوي ، ومن ثم ترى
الشاعر ألزم نفسه بما لا يلزم القافية ولو تركه فلا تثريب عليه .

والحقيقة أن لزوم ما لا يلزم يضاف على القصيدة مزيداً من الجمال والوقع الموسيقي ، وأيضاً
يبدى مقدرة الشاعر على تطويع أدواته الفنية .

قد يقال : إن هذا ليس دليلاً على أنهم وضعوا علوماً إنما هو دليل على قوة الطبع وأصالته .

قد يقال هذا ، لكن ماذا يقال في مجيء الشاعر بلزوم ما لا يلزم وتركه في القصيدة الواحدة ؟
ألم تر هنا أن الشاعر يعلم أنه يأتي بما لا يلزم وإن هو تركه فلا تثريب عليه ؟ ألم تر هنا أنه يعلم
كونه لم يخل بأصول وضعت لهذا الأمر ؟

وهناك دليل آخر يعرفه الدارسون للأدب العربي القديم ، وهو أن الشاعر في بداية حياته

(١) ارجع إلى (مختار الشعر الجاهلي) للأستاذ مصطفى السقا وإلى كتاب (الناطقة الديباني) للأستاذ محمد سليم
الجندي ، وكتابه (المنهل الصافي في العروض والقوافي) .

الشاعرية أو حين يجد لديه الموهبة كان يلزم شاعراً كبيراً ويعرف فيما بعد بأنه راويته ، وهو بذلك يتعلم منه ويأخذ عنه ، فإن كان الأمر طبعاً فعلام يجشم نفسه هذا .

وهناك دليل أعظم وهو ورود ذكر تعلم الشعر في القرآن العظيم وذلك في الآية التاسعة والستين من سورة (ياسين) : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وواضح أن الآية الكريمة تنفي عن النبي ﷺ تعلم الشعر ولا ينبغي للنبي ﷺ هذا ، لكن مدلول اللفظ ومعناه يعرفنا أن الشعر كان يُعلم لدى المخاطبين .

رأينا حديث ابن فارس بإثباته وجود علم النحو قديماً كذلك إثباته لعلم العروض والقوافي ، وأنتيك أنا بما استطعت لإثبات هذا من قبل ومن بعد . وعليه ترى أن الأمر ليس غريزة ولا سليقة إنما علوم صيغت ووضعت فهم بها يلتزمون وإليها يرجعون ، وإن كانت هذه العلوم تداولت منذ ما قبل الإسلام فيكون عرفها كل العرب مدرراً ووبراً كما قال ابن فارس ، أي أهل الحضر منهم وأهل البادية، ثم كان لفريق منهم امتياز في هذا الأمر دون قصد ، وهذا الامتياز يتمثل في بقاء الأعراب في بواديه لم يبرحوها ولم تغرهم الحضارة الجديدة ولم ينتشروا في الأرض كغيرهم فبقيت عربيتهم سليمة بينما أخذت تفسد على ألسنة إخوانهم المتحضرين لاختلاطهم بالأجانب ، بل وغداً هناك ما عُرف بالمولدين .. وعنت الحاجة إلى تجديد هذه العلوم وتصنيفها وتدوينها تحت مسميات حديثة ، فرأى القائلون على الأمر أن يستعينوا بهؤلاء الأعراب الذين لم يغادروا ديارهم ولم يخالطوا الأجانب الذين امتلأت بهم البلاد العربية والذين امتلأت بلادهم بالعرب . وهناك التقى الحديث بالقديم ووجدت الفجوة ، أي لقاء المادة العلمية لدى الأعراب والمسمى الحديث لدى العلماء .

وإننا إذا ما ألقينا نظرة على لفظ (النحو) نفسه لرأيناه (اقتفائي) ، ويؤكد لنا هذا نظرة أخرى نلقيها على سبب التسمية ، فقد قيل : إن الإمام على (ر) ، وضع أمثلة أو نهجاً للأعراب وأمر أبا الأسود أتباعه ؛ إذ هو يدون فيه كتاباً بأمره وقال له : انحُ هذا النحو ؛ أي اتجه فيه هذا الاتجاه ، أو انهج هذا النهج ، ويفهم من هذا أن العلم كان موجوداً وقائماً وأراد على (ر) أن يدونه ليحفظه ويحفظ به اللغة بعد أن أخذت تفسد على الألسنة .

فالنحو هنا هو نحو المنهج الذي وضعه الإمام على ، لذلك رأيت ابن فارس يقول : إن هذين العلمين كانا قديماً وأنت عليهما الأيام وقللاً في أيدي الناس ، ثم جددتهما هذان الإمامان (يعنى أبا الأسود للنحو ، والخليل للعروض) .

لكنك ستري أيضاً أن هذه الفجوة أخذت تُسد شيئاً فشيئاً ويتنبه الأعراب للأمر بل ورأينا من

بينهم من ينهضون للأمر مباشرة ، أى تعقد لهم حلقات الدرس فى بغداد وغيرها ويأخذ عنهم الطلاب ، بعد أن كان هذا الأخذ يأتيهم من خلال طرف ثانٍ .

ثم نحن لا ندرى من هم القوم الذين زعموا هذا ورد عليهم ابن فارس هذا الرد الناجع ، فابن فارس لم يعرفهم إلينا ، لكننا من خلال قراءتنا لأخبار وأدب هذا العصر علمنا أن به فريقين كانا مسيئين للعرب ، فريق يسمى إليهم عن قصد وآخر يسمى إليهم بغير قصد ، أما الذين كانوا يسيئون إليهم بقصد فهم (الشعوبية) ورأسهم الفرس وهؤلاء كانوا يحقرون من شأن العرب ما استطاعوا ، واستطاعتهم هنا ليست استطاعة اليد واللسان فهذه كانت لهم . وأحسبك تعلم أنهم هم الذين أقاموا الدولة العباسية ، ثم صاروا وزراءها وأعيانها ، ثم أخذت تغطي ثقافتهم ونزعتهم عهوداً ، وغطي كذلك نفوذهم طغياناً سبب لهم كثيراً من النكبات على يد بعض الخلفاء وقتلوا أبا مسلم الخرساني صاحب الفضل فى إقامة دولتهم .

ولا أحب أن أميل بك عن موضوعنا ، لكن ينبغى أن ألفت نظرك أن هؤلاء الشعوبيين كانوا أصحاب درجات متفاوتة فى نظرهم إلى العرب ، منها درجة تبلغ المغالاة فى تحقيرهم ، وأصحابها هم الذين يعنوننا هنا ، وكان العصر الجاهلى المظلوم هو التكاثر التى يتكثرون عليها ، أو إن أنصفت قلت كان كبش الفدى ، لكن حين تسمع شيئاً مما كان يذاع على ألسنتهم عن العرب فى هذا العصر قد تغير رأيك وتقول : إنهم أطلقوا عليه وأرادوا غيره ، أو أرادوه وغيره معاً .

انظر إلى هذه المقولة عنهم : إن العرب قبل الإسلام كانوا فى حروبهم يسبى بعضهم نساء بعض ويستمتع بها من غير زواج ، فكيف يدرى أحدهم أباه ؟

والحقيقة أن هؤلاء كانوا لا يحفلون بالإسلام ولا بغيره من ناحية العرب ، وأن بغضهم للإسلام كان هو الداعى لهذا . إذ إن العصر الجاهلى لم يسمى إليهم فى شىء فلا هو أزال سلطانهم ولا أضاع حريتهم واستقلالهم ؛ إنما الذى فعل هذا - من وجهة نظرهم - هو الإسلام . وكان كثير من هؤلاء يسيئون إلى الإسلام مباشرة دون مواربة ودون نوال غيره بالإساءة حتى لو كان ينتظرهم الجلال ، وحتى لو كان ينتظرهم الحريق .

وإذا كان يصدر عنهم هذا وغيره مما هو شائن ألا يصدر عنهم ما هو دونه مما ذكره ابن فارس ورد عليه ؟

وإذا كان النفوذ الفارسى تلاشى فى عصر ابن فارس فإن هذه الدعوة لم تتلاش وأنت ترى من مسمأها أنها جمع (شعب) أضيف إليه ياء وتاء نسب ، وإن كانت جمع شعب فهى تعنى كل

شعب سادته العرب ، من فرس وآشوريين وأكراد وأفغان وهنود بأنواعهم وشعوب ما وراء النهر^(١) حتى حدود الصين وروم وأرمن وإسرائيليين وبربر وأسبان وغيرها من الشعوب ، وعليه تكون هذه الدعوة قائمة حتى زوال سلطان العرب عنهم .

أما الفريق الثانى الذى كان يسمى إليهم بدون قصد فهو المحب لهم المدافع عنهم ، لكن انظر إلى رد أحدهم على المتعصبين ضد العرب إذ يقولون : إن العرب لا نصيب لهم من علم ولا غيره حتى الشعر الذى يفخرون بأنه فنهم فلم يكن فنهم وحدهم وكان لكل الأمم .

فرد يقول : إن الهند لهم معان مدونة ، وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف إنما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، ولليونان فلسفة ومنطق ، لكن صاحب المنطق نفسه بكى اللسان ولا موصوف البيان ، وفى الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد (وخلوة) وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام ، فليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، فتأتيه المعاني أرسالاً وتنشال الألفاظ عليه انشياً . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى علم كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب .

ها أنت ترى أن الجاحظ^(٢) أراد الإنصاف فأخطأ السبيل ، وما هو بين يديك ترى أن العرب لم يكونوا كذلك ، وما استدعته الضرورة ههنا وبدون إطالة فأخالك تعلم أنه كانت بالعصر الجاهلى قصائد تعرف (بالحوليّات) لأنها كانت تعد فى حول كامل ، وإذا كانت قصيدة تعد فى سنة كاملة فترى أى معاناة وأى مكابدة ، وترى أى إجمالة فكر وتشيت ذهن يكون أبعد من هذا .

لكن أين رد الجاحظ من رد ابن فارس : إننا نزعم أن العرب مدرأ ووبرأ قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم فما كل يعرف الكتابة والخط ويقرأ .

وقد وقفنا هناك ورأينا أن الأمر تجاوز الكتابة والقراءة . وهل خلا عصر من الأميين حتى عصرنا نحن رغم النهضة العلمية التى نحيها والحملة العظيمة القائمة لمحوها ؟ وهل خليت الأمم الإفريقية من الأميين بعد وهى مصدر الحضارة اليوم ؟ ●

(١) كانوا معروفين بالمنصر التركى ، وكانوا هم أصحاب النفوذ فى ذلك الحين .

(٢) فى كتابه (البيان والتبيين) وتناوله الأستاذ أحمد أمين فى (ضحى الإسلام) .

إحصاء البلاذري

ذكرت آنفاً أنه بعيد من أن يكون إحصاء وأن نأخذ به ، لأن البلاذري يذكر أن الإسلام جاء وفي مكة سبعة عشر نفساً فقط هم الذين يقرءون ويكتبون واستدرك آخرها فكانوا ثمانية عشر ، وذكر قليلاً من النساء بعضهن تقرأ ولا تكتب ، وحتى في هذا لم يكن صائباً كما سآيين .

وإليك أولاً أسماء هؤلاء الثمانية عشر . عمر بن الخطاب ، علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، أبو عبيدة بن الجراح ، طلحة بن عبيد الله ، يزيد بن أبي سفيان ، أبو حذيفة بن عتبة ربيعة ، حاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو ، عبد الله بن أبي سرح ، حويطب بن عبد العزى ، أبو سفيان بن حرب ، معاوية بن أبي سفيان ، جهيم بن أبي الصلت بن مخزومة ، أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، أبان بن سعيد بن العاص ، خالد بن سعيد ، ومن خلفاء قريش العلاء الحضرمي ، ثم ألحق بهم شرحبيل بن حسنة حليفاً أيضاً .

ومن النساء ، الشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر ، وأم كلثوم بنت عقبة ، عائشة بنت سعد ، كريمة بنت المقداد ، وعائشة بنت أبي بكر . كانت تقرأ ولا تكتب ، كذلك أم سلمة .

ومن خلال هذه الأسماء ترى أن البلاذري غفل أو ربما لم يصله ذكر أعلام يجعلك من أول وهلة تستدل على عدم الدقة وعدم الأخذ بإحصائه ، لكنك حين تتأمل هذا تتعجب كيف لم يصله اسم كاسم الخليفة الأول أبي بكر ، ولا اسم كاسم ورقة بن نوفل وغيرهما ممن سآقدمهم ...

(ورقة بن نوفل) الذي لم يكتف بالعربية ، وقيل كان يتقن السريانية والعبرية واليونانية وكتب بها .

(النضر بن الحرث) الذي تجاوز العربية أيضاً ودرس الفارسية وآدابها وتاريخها .

(أبو بكر الصديق) من ينكر قراءته وكتابته ، بل وعلمه ، يقول جبير بن مطعم أحد الذين أخذوا العلم عنه وأحد الثلاثة الذين أشرفوا على إنشاء (الديوان) : أخذت العلم عن أبي بكر ، وكان الناس في الجاهلية يختلفون إلى داره للعلم والطعام .. وقد مرّ بك كثير من كتابته وقراءته .

(الزبير بن العوام) و (عبد الرحمن بن عوف) و (سعد بن أبي وقاص) أعضاء مجلس

الشورى، وكان يمكن أن يصبح أحدهم خليفة المسلمين بوصية عمر ضمن الستة الأعضاء بهذا المجلس ، ثم كان أحدهم وهو الزبير ممن يكتبون بين يدي النبي ﷺ أموال الصدقات ، ثم إن الثلاثة لا يخفى عليك شأنهم .

(جبير بن مطعم) و (مخرمة بن نوفل) و (عقيل بن أبى طالب) هؤلاء الثلاثة الذين ذُكروا أنهم كتبوا أسماء الناس والقبائل عند إنشاء الديوان ، والمرجح وما يقبله العقل أنهم أشرفوا على هذا لا سيما إن علمنا أنهم كانوا مرجعاً فى النسب .

(العباس بن عبد المطلب) قد مرّ بك قول الطبرى بأنه أسلم بمكة قبل بدر وأسلمت معه أم الفضل حينئذ ، وكان سبب بقائه بمكة ، أنه كان لا يرغبى على النبي ﷺ بمكة خبراً إلا كتب إليه به ، وقد مرّ بك أيضاً شأن عمرو بن هشام معه حين لوح له بأنه سيكتب فيهم كتاباً بأنهم أكذب بيت فى العرب ، وقد مرّ بك كذلك شهادته فى كتاب بنى جُعليل الذى كتبه لهم النبي ﷺ وشهد فيه أيضاً على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وأبو سفيان بن حرب .

(خالد بن الوليد) ما أكثر ما مرّ بك من كتابته وقراءته .

(الوليد بن الوليد) الذى مرّ بك أنه كتب لأخيه خالد بأن النبي ﷺ سأل عنه فقراً خالد رسالته ووقع الإسلام فى قلبه ، ويذكر ابن سعد فى (طبقاته) أن الوليد مات وهو يقرأ رسالة للنبي ﷺ بعدما فرّ هارباً من مكة .

(خباب بن الارت) قد مرّ بك أن سبب إسلام عمر صحيفته التى كان يقرئ فيها أخت عمر وزوجها .

(عبد الله بن مسعود) قد مرّ بك عظيم ينفى عنه الأمية ، وكتب الخليفة عمر إلى أهل الكوفة يقول : يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمعتموها وسهمى الذى أرمى به إن أثنى شئ من ههنا وههنا ، قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً .

(عمار بن ياسر) ها أنت رأيت الخليفة عمر قال لأهل الكوفة قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً ، ولا يليق أن يبعث الخليفة على مصر كالكوفة أميراً أمياً ، وأستزيدك : كان عمار من الثائرين على الخليفة عثمان بن عفان (ر) . ويقال إنه اشترك مع نفر من الصحابة فى مكتوب كتبه إلى الخليفة يلوونه ويعظونه وأقبل عمار بالكتاب فدخل عليه وقرأ بين يديه صدرأ منه .

(أبو موسى الأشعرى) يذكر فى (طبقاته) : أن الخليفة عمر كتب إلى أبى موسى الأشعرى حين

كان عامله : إن العرب هلكت فابعث إلى بطعام . فبعث إليه بطعام وكتب له (بعثت إليك بكذا وكذا ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الأمصار . وعن أبي بردة قال : كتب أبو موسى إلى معاوية : سلام عليك ، أما بعد فإن عمرو بن العاص قد بايعني على الذي بايعني عليه وأقسم بالله لئن بايعتني على ما بايعني عليه لأبعثن ابنك أحدهما على البصرة والآخر على الكوفة ولا يغلق دونك باب ولا تقضى دونك حاجة وإني كتبت إليك بخط يدي فاكتب إلى بخط يدك .

ولا ننسى شأن أبي موسى وموضوع التحكيم .

(عبد الله بن عمرو بن العاص) الذي تُروى عنه أحاديث للنبي ﷺ وكان صاحب صحيفة تسمى (الصادقة) يسجل بها ما يسمعه من النبي ﷺ .

(حاطب بن أبي بلتعة) و (عمرو بن أمية) و (شجاع بن وهب) و (عبد الله بن حذافة) سفراء النبي ﷺ وحملة كتبه الذين مرّ بك ذكرهم . (السائب بن العوام) مبعوث النبي إلى مسيلمة بكتاب يرد فيه على كتاب مسيلمة .

(الوليد بن عقبة) فتي قریش الشاعر ، وهو أخو عثمان من أمه ، ثم هو بعد ذلك أمير الكوفة وهنالك كثرة المكاتبة بينه وبين الخليفة عثمان لا سيما بعد أن أخذ يشكوه جماعة من أهل مصره .

(عمرو بن العاص) الغنى عن التعريف والغنية سيرته بالقراءة والكتابة ، وقد مر بك طرف منها . (عبد الله بن جحش) كان قارئاً كاتباً وقد دلنا على هذا السرية التي أمره عليها النبي ﷺ وكانت برجب من العام الثانى للهجرة ، أى قبل بدر . فإن النبي ﷺ كتب له كتاباً وقال له لا تنظر فيه إلا بعد مسير يومين ، فلما انقضى اليومان فتح المکتوب وقرأ : إذا نظرت فى كتابى هذا . فسر حتى تنزل بين مكة والطائف فترصد قریشاً وتعلم لنا أخبارها .

(عبد الله بن عمر) الذى كان يسجل أحاديث للنبي ﷺ وتُروى عنه .

(حنظلة بن أبى سفيان) الذى كتب إلى أبيه رسالة يخبره فيها بقيام النبي ﷺ بدعوته إذ هو بنجران .

(عبد الله بن الزبير) ذكرت آنفاً أن ابن سلام فى ترجمته له قال : حدثنى شعيب بن صخر عن أبى بكر المصعبى قال : أصبح الناس بمكة ومکتوب على دار الندوة :

ألهى قصياً المجد الأساطير ورشوة مثل ما تُرشى السفاسير
وأكلها اللحم لا خليط له وقولها رحلت عيرأت عير

فعلّموا أن كاتبها هو عبد الله بن الزبير .

(عتبة بن أبي سفيان) الذي ولى إمارة الطائف حتى خلافة عثمان (ر) ، وما نحسب أن الأمراء على البلاد يكونون أميين .

(عبد الله بن أبي بكر) عن عائشة (ر) أنها سئلت : متى بنى بك النبي ﷺ ، فقالت : لما هاجر إلى المدينة خلفنا وخلف بناته ، فلما قدم المدينة ، بعث إلينا زيد بن حارثة ، وبعث معه أبا رافع موله وأعطاهما بغيرين وخمسائة درهم أخذها النبي ﷺ من أبي بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظهر ، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط ببغيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله ؛ أمي أم رومان وأنا وأختي أسماء .

(الأرقم بن أبي الأرقم) صاحب الدار التي نزل بها النبي ، ثم تصدق بها وكتب صيغة صدقته بخطه ، ثم هو ممن كتبوا بين يدي النبي ، وكتب صيغة كتاب عاصم بن الحرث الحارثي ، وكذلك صيغة كتاب الأجب السلمي .

(عياش بن أبي ربيعة) مبعوث النبي إلى بني كلال اليمنيين ، ثم هو بعد ذلك أمير عليهم من قبله وقبل خليفته أبي بكر .

(هشام بن العاص) أحد الذين كان يقول فيهم عمر بن الخطاب (ر) : ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ، أردف : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم الرسول ﷺ المدينة جاء الوحي في قولنا وقولهم : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ، قال عمر : فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام ، فلما قرأها سكنت نفسه .

(مصعب بن عمير) الذي بعثه النبي ﷺ إلى الشريبيين معلماً ، وذكرت آنفاً كتابته إذ هو يثرب وأيضاً قراءته .

(عبد الله بن الأرقم) مضى الحديث عنه بأنه ممن كانوا يكتبون بين يدي النبي ﷺ .

(أمية بن خلف) الذي مرّ بك أنه كاتب عبد الرحمن بن عوف بأن يحفظه في صياغته في مكة وكاتبه عبد الرحمن بأن يحفظه في صياغته بالمدينة .

(عكرمة بن عمرو) الذي كان من أمراء الجند ومرت بك كتابته وقراءته . (كاتب الصحيفة) .

ذكر في كاتب صحيفة المقاطعة قولان ، الأول يقول : إن كاتبها هو (منصور بن عكرمة) ،

والثاني يقول : كاتبها هو (بغويض بن عامر) ، أو (منصور بن شرحبيل) . وإن نحن اعتبرنا المنصوريين منصوراً واحداً وحدث لبس ، فيكون دوننا اثنان كاتبان اختلف أيهما كاتب الصحيفة . (الأخنس بن شريق) و (أزهر بن عوف) اللذان كتب كل منهما رسالة إلى النبي ﷺ مضمونها أن يرد أبا بصير مولاى أزهر الذى فرّ عن مكة إلى المدينة بعد معاهدة صلح الحديبية .

(أبو بصير) الذى كتب فيه أزهر والأخنس إلى النبي ﷺ لكى يرده ، فقال له النبي بعد أن جاءت رسالتا أزهر والأخنس : قد علمت ما أعطينا هؤلاء القوم من العهد ولا يصح لنا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك ، قال أبو بصير : يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ فكرر عليه النبي قوله ، فانطلق أبو بصير مع الرجلين اللذين جاءا يردانه حتى إذا بلغوا موضعاً اسمه (ذو الحليفة) سأل العامرى أن يريه سيفه ، فناوله إيّاه ، وما إن استوى مقبضه فى يد أبى بصير حتى هوى به على العامرى فقتله ، وفرّ مولى العامرى هارباً باتجاه المدينة حتى أتى النبي ﷺ فقال له النبي : ما لك ، قال الرجل : قتل صاحبك صاحبى ، وبعد قليل ظهر أبو بصير متوشحاً سيفه مبادراً للنبي بقوله : يا رسول الله وقتّ ذمتك وأدى الله عنك أسلمتنى للقوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعيث بى ، ولم يخف النبي إعجابه وتمنيّه له فقال : ويل أمه محشّ حرب لو كان معه رجال ، ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام ، وكان عهد الرسول وقريش أن تترك للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش ، فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إعجاب النبي ، فرّ منهم نحو سبعين رجلاً اتخذوه لهم زعيماً وإماماً وجعلوا يقطعون على قريش طريقها ، وكانوا لا يظفرون بأحد من قريش ^(١) إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها ، فكتب القرشيون إلى النبي يسألونه بأرحامهم إلا آواهم ولا حاجة لهم بهم ، فكتب النبي إلى أبى بصير بالمجئ إلى المدينة ، فقرأ أبو بصير ^(٢) كتابه وهو طريق فراش الموت ، وتوفى ورجع سائر أصحابه .

(سهيل بن عمرو) و (مكرز بن حفص) اثنان من ثلاثة أوفدتهم قريش ليعقدوا صلح الحديبية ، ولا نحسب أن قريشاً توفد ثلاثة أميين ليتفاوضوا على معاهدة كهذه ولا على أى معاهدة ومكة غنية بالمتعلمين ، وما يؤكد عندك رأى أن ثالث الثلاثة هو أحد الذين ذكرهم البلاذرى فى إحصائه

(١) محمد حسين هيكل (حياة محمد) .

(٢) ابن سعد فى (طبقاته) ، الجزء الخامس .

(حويطب بن عبد العزى) لكننا رأينا متكلمهم عند المفاوضات هو سهيل وليس حويطب ، وما كان حويطب بالصغير حتى يكون الكلام لعمرو ، لكن كان سهيل أعلم منه وأجدر بالمفاوضات ، وهذا ما بدا لنا أثناء كتابة صيغة المعاهدة ، ثم إن سهيلاً كان خطيب مكة ومن فصحاءها حتى أنه لما أسر في بدر أراد عمر بن الخطاب (ر) أن ينزع ثيابه لكي تذهب عنه فصاحته إذ كان يتناول المسلمين بالعيب ، وما قلته في عمرو ويقال في مكرز ، ثم يبقى الأهم وهو أن كل واحد من الثلاثة وقع شاهداً على هذه المعاهدة .

(عُتْبَةُ بن غزوان) الذى قيل إنه هو الذى اختطّ موضع البصرة ، ثم هو أميرها من بعد لعمر بن الخطاب وقد مرّت بك مكاتبه ضمن مكاتبة الصحابة .

(عياض بن غنم) الذى خلف أبا عبيدة بن الجراح على الشام بعد وفاته ، وكتب إليه عمر : إننى وليتك ما كان يليه أبو عبيدة فاعمل بالذى يحق الله عليك .
ومرت بك كتابته ، وإن كان حسب المستشهد به عاملاً على بلد ما .

(عتّاب بن أسيد) الذى استخلفه النبى ﷺ على مكة ، ثم هو أميرها فيما بعد ، ومرّت بك كتابته .
(مُحرز بن حارثة) أمير مكة بعد عتّاب .

(نافع بن ظريب) الذى قيل إنه كتب المصاحف فى عهد عمر بن الخطاب ، أو قد يكون هو الذى أشرف على ذلك ، فالإخباريون يقولون : كتب ، ورب كانت (كتب) هنا مجازاً ، إذ يستبعد أن يكتب المصاحف شخص واحد .

(قُدّامة بن مظعون) أمير البحرين لعمر بن الخطاب ، ثم عزله لأنه شرب خمر ، وقيل لم يُحد شارباً لها .

(النعمان بن عدى) أمير (ميسان) للخليفة عمر ، وقد مرّت كتابته ضمن مكاتبة الصحابة .
(الحكم بن سعيد) الذى أطلق عليه النبى ﷺ (عبد الله) بدل (الحكم) واستقلّمه إلى المدينة يعلم الناس .

(سعيد بن عامر) الذى تولى حمص فى خلافة عمر ، ومرّت بك كتابته وقراءته ضمن مكاتبة الصحابة .

(محمية بن جزاء) الذى جعله النبى ﷺ على أخماس المسلمين ، ويعنى هذا أنه يتولى تجميع الأخماس التى تأتى من البلاد العربية وذلك أمر يحتاج إلى حساب وتدوين .

(بُسر بن سفيان) و (بُديل بن ورقاء) الذي كتب النبي إلى كل واحد منهما إذ هو بالمدينة يدعوه إلى الإسلام ، ورسالتان يكتبهما النبي ﷺ وهو بالمدينة إلى اثنين بمكة يدعوهما إلى الإسلام فينبغي ألا تتجاوزا صاحبيهما فقد كان هذا قبل الفتح ، وقد مرّ بك ذكرهما ضمن مكاتيب النبي ﷺ ، ثم إن بُسر أسلم بعد الفتح وجعله النبي على مغانم حنين ، وكذلك أسلم بُديل .

(عامر مولى أبي بكر) الذي وقع شاهداً على كتاب نجران مع أبي سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة وغيلان بن عمرو والأقرع بن حابس ومالك بن عوف النصرى والمستور (بن عمرو) وقد مرّ بك ذكره .

(خالد بن سعيد) الذي مرت بك كتابته أثناء مكاتبة الصحابة ، ثم هو بعد ذلك ولياً على مكة .
(حمارة بن الوليد) ذكرت كتابته في قصة أوردها أبو الفرج الأصفهاني في (الأغانى) ، وابن هشام في (الروض الأنف) تقول : كان عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص أثناء سفرتهما إلى الحبشة صحبا معهما حمارة بن الوليد وكان حمارة جميلاً وسيماً ، وصحب عمرو امرأته معه ، فلما ركبوا البحر ، وكان حمارة هو ابن عم امرأة عمرو وهويته فعزما على دفع عمرو في البحر ، وحدث هذا لكن عمرو سبّح ونادى أصحاب السفينة فانتشلوه ، وأضمرها عمرو في نفسه ولم ييدها لعمارة بل قال لامرأته قبلي ابن عمك لتطيب نفسه بذلك ، فلما أتيا الحبشة مكر به عمرو وقال له : إني كتبت لبني سهم ليبرأوا من دمي لك فاكتب أنت لبني مخزوم ليبرأوا من دمك لي حتى تعلم قريش أننا تصافينا ، فلما كتب حمارة إلى بني مخزوم بهذا ، قال شيخ من قريش : قُتل والله حمارة ، وعلم أنه مكر من عمرو .

(عبد الله بن أبي ربيعة) أمير جند اليمن منذ عهد النبي ﷺ حتى خلافة عثمان بن عفان (ر) وعند اشتداد الأمر على الخليفة كُتب إليه أن يوافي المدينة ، فبلغها بعد مقتله .

(جعفر بن أبي طالب) الذي وقف بين يدي النجاشي يجيبه إذ يسأله عن الإسلام ويقرأ عليه شيئاً من القرآن، تُرى هل يبرز المهاجرون أمياً يبطل حجج مبعوثي قريش اللذين جاءا يردونهم إلى قومهم وأحدهما هو عمرو بن العاص ، ثم ذكر أن الكتاب الذي كتبه النجاشي إلى النبي كتبه بين يدي جعفر . أترى أن المهاجرين كانوا يفعلون هذا وفيهم المتعلمون مثل عثمان بن عفان وغيره ؟

(عمرو بن هشام) إن شرفه ومنزلته في القوم وثراءه وتجارته الواسعة كلها أسباب تنفي عنه الأمية ، ومرّ بك تلويحه للعباس ، وكان من أشد المتحمسين لصحيفة المقاطعة ، ثم من أشد المدافعين عن بقائها .

(الوليد بن المغيرة) سيد من سادات مكة وكبير مخزوم أصحاب التجارة الواسعة والثروة الهائلة، أنحسب مثل صاحب هذا الشأن يكون أمياً ، وهب أن هذا ممكن ، فهل يكون ممكناً أن يتحدث أميٌ ببحور الشعر ؟

ها هو دونك واحد وستون مكياً بدا لنا أنهم قارئون كاتبون بل وفيهم من تجاوز هذا ، وقد استثنيت عمرو بن هشام لأنني لم أجد نصاً صريحاً ذكر فيه بالكتابة والقراءة وإن كانت القرائن تدلنا على تعليمه ، كذلك استثنيت نفرأ من أشراف قريش وشعرائها ، مثل حكيم بن حزام وأبي البختري بن هشام ونوفل بن خويلد وطعيمة بن عدى وعتبة بن ربيعة وأخيه شيبه بن ربيعة ونييه بن الحجاج وأخيه منبه بن الحجاج وعمرو بن ود وغيرهم ومن الشعراء مثل أبي سفيان بن الحرث وضرار بن الخطاب الفهري وأبي عزة الجمحي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي لنفس الأمر الذي استثنيت به عمراً .

وإذا كنا رأينا الموالي والمستضعفين يقرءون ويكتبون ألا يقرأ ويكتب أشراف مكة وساداتها ؟ ولا تحسب ذكرى البصرة والكوفة وميسان وغيرها من المدن التي فُتحت أنني ابتعدت عن الناس الذين يعنوننا ، لا ، فغالب هؤلاء ستجد ذكرهم في (طبقات ابن سعد) عند ذكره مهاجرة المدينة والحبشة ، أو من القريشيين الذين كانوا عند دخول الإسلام في مكة ولم يسلموا إلا عند الفتح وبعده ، وعدد يسير من حلفائهم لكنهم كانوا بمكة قبل مجيء الإسلام وإقامتهم بها دائمة .

وبعد فإن الواحد والستين الذين استطعت ذكرهم والثمانية عشر الذين ذكرهم البلاذري هم ليسوا كل الكاتبين القارئين من الرجال في مكة بل هم الذين طفت بذكرهم الأحداث فدللتنا عليهم ، وقد تقدم أثناء حديثي عن دواعي مكة الكتابية ما وضح لك هذا ، ومر بك أيضاً قول المسعودي : (إنه أسقط أسماء كثيرين من الكتبة لأنهم لم يداوموا الكتابة مع النبي ﷺ) ، ورأيت النبي نفسه يقول لأحد المغمورين الذين كانوا يكتبون بين يديه : (اكتب يا غلام ، وأمسك يا غلام) ويعزز هذا وذاك أمرٌ ، وهذا الأمر يتمثل في نفر غالبهم غير الذين ذكرهم البلاذري والذين ذكرتهم . لكن الرواة وكتاب السير والأخبار غفلوا عن تعيينهم بهذا ، وذكروا بالتعليم ضمن أربع وسبعين رجلاً هم (أسرى بدر) ولا ينكر أحد أن النبي ﷺ رأى أن من لا يقدر على الفداء منهم عليه تعليم عشرة من صبية المسلمين .

ومن خلال إلقاء نظرة على الأربعة والسبعين الذين ذكرهم الواقدي^(١) نرى أن أربعة منهم

(١) في كتابه (المغازي) .

بادروا بالفداء ممن عرفناهم متعلمين ، وهم العباس بن عبد المطلب ، وابن أخيه عقيل بن أبي طالب ، وسهيل بن عمرو ، والوليد بن الوليد ، ومن ثم ترى أن الأسرى المتعلمين المتبقين غير الذين ذكرهم البلاذرى وغير الذين ذكرتهم .

لكن ما عددهم على وجه التحديد من مجموع السبعين ، الحق أننى لم أقف على هذا رغم أنى لم أثل جهدا فيه ، ثم اعلم أن الواقدى ذكر هذا العدد إلا أنه لم يسم غير ستة وأربعين ، ثم أحصى الذين افتدوا بالمال منهم بستة وعشرين ، فيتبقى عشرون ، قُتل منهم اثنان صبرا وهما النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط ، ومات ثالث أثناء أسره ، فيتبقى سبعة عشر ، ذكر منهم نفر لم يكن لهم مال وآخران أطلقوا بغير مال لكنه لم يحدد متى أطلقوا ولا كم من الوقت ظلوا فى أسره ، وأيضا لم يذكر شيئا فى الذين لم يكن لهم مال ، ومن ثم ترى أن الذين افتدوا عنده بالمال ست وعشرون أسيرا ، نضيف إليهم من المجموع الكلى ثلاثة لم يذكرهم الواقدى فى إحصائه ، وهم العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب ، ونوفل بن الحرث وثلاثة آخرين قتلوا بعد الأسر ، وعلى هذا نخرج اثنين وثلاثين أسيرا من المجموع الكلى ، فيتبقى اثنان وأربعون .. فهل يا ترى كان الاثنان والأربعون كلهم متعلمين ؟ هل كان المتعلمون نصفهم ، أو دون ذلك ؟ لا ندرى ، إنما الذى يهمنا ويعزز رأينا هو أنه كان هناك نفر من الأسرى متعلمين ، واستفاد من تعليمهم أبناء المسلمين .

ولتقف على جليلة الأمر وتؤكد أنهم غير الذين ذكرهم البلاذرى وغير الذين تسنى لى ذكرهم أقدم إليك أسماء (أسرى بدر) من (سيرة ابن هشام) لأن الواقدى كما نوهت لم يسم من مجموع الأربعة والسبعين الذين عنده سوى ستة وأربعين رغم أنه نهج فى هذا الأمر نهجاً حسناً فذكر اسم الأسير وآسره ، ثم أسماء المفاوضين الذين انتدبتهم قريش لفك أسراهم ، وذكر أيضاً تفاوت الفدية حسب منزلة المفتدى ، وأيضا ذكر رغبة الأسر ورؤيته فى هذا .. ونهج البلاذرى فى (أنساب الأشراف) نهج الواقدى إذ هو يتناول الأمر ، لكنه كان دون الواقدى إحصاءً ، أما ابن هشام فلم ينهج هذا النهج إنما هو ذكر أسماء أكبر عدد من الأسرى ، ورغم هذا فقد سقطت منه بضعة أسماء أيضاً ، ولكى أسهل عليك الأمر سأضع علامة فوق الذين افتدوا ، ورواية ابن هشام هذه عن ابن إسحاق ، قال ابن هشام : وأسر من المشركين من قريش يوم بدر :

* من بنى هاشم بن عبد مناف : (عقيل بن أبي طالب) ، (نوفل بن الحرث) .

* ومن بنى عبد المطلب بن عبد مناف : (السائب بن عبيد) ، (نعمان بن عمرو بن علقمة) ،

(العباس بن عبد المطلب)^(١) .

* ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف : (عقبة بن أبي مُعيط) ، (الحِث بن أبي وجزة) ، (عمرو بن أبي سفيان)^(٢) ، (أبو العاصي بن الربيع) ، (أبو العاص بن نوفل) ، ومن حلفائهم (أبو ريشه بن عمرو) ، (عمرو بن الأزرق) ، (عقبة بن الحِث الحضري) .

* ومن بنى نوفل بن عبد مناف : (عدي بن الحيار بن عدي) ، (عثمان بن عبد شمس بن أخي غزوان ، حليف لهم) ، (أبو ثور ، حليف لهم) .

* ومن بنى عبد الدار بن قصي : (أبو عزيز بن عمير) ، (الأسود بن عامر ، حليف لهم) .

* ومن بنى أسد بن عبد العزى : (السائب بن أبي حُبيس بن عبد المطلب) ، (الحويرث بن عبّاد بن عثمان) ، (سالم بن شماخ ، حليف لهم) .

* ومن بنى مخزوم : (خالد بن هشام بن المغيرة) ، (أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة) ، (الوليد بن الوليد) ، (عثمان بن عبد الله بن المغيرة) ، (صفى بن أبي رفاعه) ، (أبو المنذر بن أبي رفاعه) ، (أبو عطاء عبد الله بن أبي السائب) ، (المطلب بن حنطب بن الحِث) ، (خالد بن الأعلم ، حليف لهم) .

* ومن بنى جمح : (عبد الله بن أبي بن خلف) ، (أبو عزة عمرو بن عبد الله) ، (وهب بن عمير بن خلف) ، (ربيعة بن دراج بن العنيس) ، (وهب بن حذافة) ، (الفاكه مولى أمية بن خلف) .

* ومن بنى سهم : (أبو وداعة بن ضبيرة بن سعيد) ، (فروة بن قيس بن عدي) ، (حنضلة بن قبيصة بن حذافة) ، (الحجاج بن الحِث بن قيس بن عدي) .

* ومن بنى عامر بن لؤى : (سهيل بن عمرو) ، (عبدُ بن زمعة بن قيس) ، (عبد الرحمن بن منسوء) .

* ومن بنى الحِث بن فهر : (الطفيل بن أبي قُنيع) ، (عُتْبة بن عمرو بن جحدم) .

قال ابن هشام بعد سرده هذه الأسماء : قال ابن إسحاق فجميع من حُفِظَ لنا من الأسرى ثلاثة وأربعون رجلاً ، ووقع من جملة العدد رجل ، ومن لم يذكر ابن إسحاق من الأسرى من بنى هاشم (عتبة حليف لهم من بنى فهر) .

* ومن بنى عبد شمس بن عبد مناف : (خالد بن أسيد بن أبي العيص) ، (أبو العريض بن يسار مولى العاص بن أمية) .

(١) لم يذكر ابن هشام أسرهُ ولا فداءه وفداء ابن أخيه عقيل وحليفه .

(٢) لم يفتد بالمال إنما احتجز أبوه يثربياً ولحق في فكه مقابل هذا اليثربي ، لكن حمراً بقى في أسره وقتاً غير قصير .

- * ومن بنى نوفل بن عبد مناف : (نبهان مولى لهم) .
- * ومن بنى تيم بن مرة : (مسافع بن عياض بن صخر) ، (جابر بن الزبير ، حليف لهم) .
- * ومن بنى مخزوم : (قيس بن السائب) .
- * ومن بنى جمح : (عمرو بن أبي بن خلف) ، (أبو رهم بن عبد الله ، حليف لهم) ، (حليف آخر ذهب اسمه) ، (موليان لأمية بن خلف أحدهما نسطاس) ، (أبو رافع ، غلام أمية بن خلف) .
- * ومن بنى سهم : (أسلم ، مولى نبيه بن الحجاج) .
- * ومن بنى عامر بن لؤى : (حبيب بن جابر) ، (السائب بن مالك) .
- * ومن بنى الحرث بن فهر : (شافع وشفيع ، حليفان لهم من اليمن) .

أما النساء فى مكة فقد رأينا أن البلاذرى قال : إن أم المؤمنين عائشة (ر) كانت تقرأ ولا تكتب ، كذلك أم المؤمنين أم سلمة .. وقد وجدت فى (الطبقات الكبرى) ^(١) ما دلنى على كتابة أم المؤمنين أم سلمة (ر) ، فابن سعد روى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قوله : إن أم سلمة زوج النبى ﷺ أخبرتهم أنها ابنة أبى أمية ^(٢) بن المغيرة ، فكذبوها وجعلوا يقولون : ما أكذب الغرائب ، حتى أنشأ ناس منهم للحج فقالوا لها : أتكتبين لأهلك ، فكتبت معهم ، فرجعوا إلى المدينة فصدقوها وازدادت عليهم كرامة .

وقبل أن نودع مكة ههنا ألا نستروح بشيء من شعرها الجاهلى ، يقول زيد بن عمرو :

عزلت الجن والجنان عنى	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابتيها	ولا أطمى بنى طسم أدير
أربأ واحداً أم ألف رب	أدين إذا تقسمت الأمور
ألم تعلم بأن الله أفنى	رجالاً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم	فيربو منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً	كما يتروح الغصن المطير

(١) الجزء الثامن فى ذكر (تسمية النساء المهاجرات) .

(٢) كان هذا قبل زواجها من النبى ﷺ .

وقال ورقة بن نوفل مخاطباً زيدا: (١)

رشدت وأنعمت ابن عمرو ، وإنما	تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثلته	وتركك جنان الخبال كما هيا
أقول إذا جاوزت أرضاً مخوفة	حنانك لا تظهر على الأعاديا
حنانك إن الجن كانت رجاءهم	وأنت إلهي ربنا ورجائيا
أدين لرب يستجيب ولا أرى	أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا
أقول إذا صليت في كل بيعة	تباركت قد أكفأت باسمك داعيا

وقال في موضع آخر :

نسبح الله تسبيحاً نحوود به	وقبلنا سُبْح الجودى والجُمدُ
لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يغرركم أحدُ
لا تعبدن إلهنا غير خالقكم	فإن دعوكم فقولوا بيننا حدُ
سبحان ذى العرش سبحانه يعادله	رب البرية فردٌ واحد صمدُ
مسخر كل ما تحت السماء له	لا ينبغي أن يساوى ملكه أحدُ
لم تغن عن هُرمز يوماً خزائنه	والخلد قد حاولت عادُ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له	والإنس والجن فيما بينها تردُ
لا شيء مما ترى إلا بشاشته	يبقى الإله ويفنى المال والولدُ

الحديث عن اليثريين من الأوس والخزرج في هذا كالحديث عن المكيين ، ووقفت على هذا وذاك ، إنما نحن الآن بصدد إحصاء البلاذرى ، فنراه يذكر أن عدد الكتابين في الأوس والخزرج أحد عشر كاتباً هم : (سعد بن عبادة بن دليم) ، المنذر بن عمرو) ، (أبى بن كعب) ، (زيد بن ثابت) ، (رافع بن مالك) ، (أسيد بن حضير) ، (معن بن عدى ، البلوى حليف الأنصار) ، (بشير (١) هذا الشعر ورد في (جمهرة نسب قريش) وفي (تاريخ الطبرى) و(معجم البلدان) ، و(الروض الأنف) ، و(البداية والنهاية) .

بن سعد) ، (سعد بن الربيع) ، (أوس بن خولى) ، (عبد الله بن أبي) . أولئك هم الذين أحصاهم البلاذرى عدداً ، ومما لم يذكرهم ووردت أسماؤهم فى (الطبقات الكبرى) ^(١) يقول ابن سعد : كان (أبو عبس بن جبر) كاتباً قبل الإسلام و(عاصم بن ثابت) الذى بعثه النبى ﷺ مع اللحيانيين الذين سألوه أن يبعث معهم نفرأ يقرئونهم القرآن ويعلمونهم شرائع الإسلام . (سعد بن زرارة) كان كاتباً (عبد الله بن كعب) كان كاتباً ، (عبد الله بن رواحة) كان كاتباً ، وهو أحد النقباء الاثنى عشر ، (عبد الله بن زيد) كان كاتباً ، هو من شهدوا العقبة مع السبعين ، وقد كتب بين يدى النبى ﷺ صيغة كتاب الذين أسلموا من حدّس من لحم ، (أبو عامر الراهب) كان كاتباً ، وذكر أنه قرأ الكتب القديمة (سعد بن معاذ) كان كاتباً ومر بك الحديث عنه أثناء عمله للنبي ومن بعد (زياد بن ليبد) مر بك الحديث عنه فى تلك المواضع ، (سعد بن مالك) كان كاتباً ، وكتب وصيته فى مؤخرة رحله لما أحس الموت إذ هو يتجهز لغزوة بدر ، (عمير بن سعد) كان كاتباً ، وارتقى إلى إمارة حمص حتى خلافة عثمان (ر) ، (حسان بن ثابت) كان كاتباً ، وقد مرت بك كتابته ، (محمد بن مسلمة) كان كاتباً ، وهو الذى كتب صيغة كتاب مهره بين يدى النبى ﷺ ، وشهد على كتاب (وفد ثماله والحدان) وشهد كذلك فى مواضع أخرى مرت بك ، وأيضاً كتب (ثابت بن قيس) الذى كتب صيغة كتاب وفد ثماله والحدان كتب وشهد فى مواضع أخرى ، (أنس بن مالك) الذى مر بك الحديث عنه ، (أبو الدرداء) الذى مر بك الحديث عنه أيضاً ، وقد يكون كتب بغير العربية لكون القصص التى كان يكتبه غير عربية ، وأبو الدرداء هو أخو عبد الله بن رواحة ، (سهيل بن حنيف) الذى ولاه الإمام على (ر) إمارة المدينة ، ثم كتب إليه أن يلحق به بالكوفة ، (أبو مسعود الأنصارى) كان كاتباً ، وقد استخلفه الإمام على (ر) على الكوفة حين خرج إلى صفين ، (سلمان الفارسى) الذى قيل عنه أنه كان يقرأ العربية والكتب القديمة

ها هو دونك تسعة عشر رجلاً جمعتهم ، وهؤلاء وأولئك الذين ذكرهم البلاذرى ليسوا هم جميع كتبة المدينة من الأوس والخزرج ، فإن شأن المدينة الذى بدا لك ينفى عنها أن يكون فى أكبر عنصريها ثلاثون رجلاً هم كل الذين يكتبون ويقرءون .

ورأينا البلاذرى لم يذكر من النساء واحدة ، ولعل حديث الربيع بنت معوذ يدلنا على غير ذلك ، أما ترى فيه دليلاً على انتشار الكتابة فى المدينة : (دخلت فى نسوة من الأنصار على أسماء فى زمن عمر وكان ابنها عبد الله بن أبي ربيعة يبعث إليها بعطر من اليمن ، وكانت تبثه إلى

(١) فى مواضع متفرقة ، مثل (طبقات البدرين من الأنصار) ، و(النقباء فى البيعة الأولى والثانية) ، وفى مواضع أخرى تجدها من الجزء الثالث حتى السابع .

الأعطية، فكنا نشترى منها ، فلما جعلت لى قواريرى ووزنت لى كما وزنت لصواحبي قالت :
اكتبن لى عليكن حقى ، فقلت : نعم أكتب .
وما كانت الربيع بالصغيرة حينئذ .

وللأسف أن إحصاء البلاذورى هذا رأيته مسلماً به عند كثيرين كأن صاحبه كان معاصراً
لمجىء الإسلام فهو شاهد عيان .

ونسى أن الرجل من معاصرى الثلث الأخير من القرن الثالث الهجرى ، إذ ثمة من يذكرون
أنه أدرك أحمد المعتضد خليفة ، والمعتضد اعتلى العرش العباسى فى الشهر السابع من سنة تسع
وسبعين ومائتين هجرية . والحقيقة أن ذكر البلاذرى لهذا العدد أمر محير ويجعل المتأمل يذهب
بفكره مذاهب شتى ..

هل الرجل قعد عن البحث والتحقيق وكان هذا فى استطاعته لإقامته ودار الكتب المركزية فى
مدينة واحدة هى بغداد ؟

هل الرجل سعى إلى هذا ولم تكن هذه الدار على ما نعهده اليوم من المكتبات الوطنية والكبرى
بأن نختلف (مثلاً) إلى دار الكتب عندما نريد مرجعاً ما ؟ وإذا ما عينا رقماً أو حرفاً يأتينا مرادنا
فى التو والساعة ومن بين آلاف الكتب التى هى تحت مصنف واحد ، وعلم المكتبات الوطنية علم
قائم بذاته اليوم ومتطور على الدوام ..

هل المؤلفات التى جاء بها ذكر هذا والتى جرى تدوينها قبل مولد البلاذرى بعقود غابت عن
هذه الدار ؟ لكن أنى وقد عنى الخلفاء والقائمون على الأمر بجلب الكتب الأجنبية من بلاد بعيدة
لترجمتها والانتفاع بها ولا يعنون كتب السيرة والأدب التى هى بين ظهرانيهم ؟ هل الرجل عمداً
إلى هذا ؟ هل أوعز إليه بهذا ؟

لا ريب أن ذكره هذا العدد وخلو ما أحصاه من عدد آخر به كثير من الأعلام مثل أبى بكر
الصديق وورقة بن نوفل وعمرو بن العاص والنضر بن الحرث وخالد بن الوليد يجعلنا نحار هكذا
.. لكننا ننسى أيضاً أمراً مهماً ، وهو أن البلاذرى لم يعن الأمر بذاته ، أى لم يعن إحصاء نأخذ به
ونعول عليه وجاء ذكره هذا فى صفحتين من كتاب يدنو من الخمسمائة صفحة اسمه (فتوح
البلدان) وليس (كُتَاب وقرآء البلدان) ، ولا يذهب خاطرك أنه يعنى فتحاً علمياً وأن مكة والمدينة
تخلفتا عنه ، لا طبعاً إنه لم يعن هذا ، وأصدقك الحديث أننى حين التقيت بهذا الكتاب حسبت

الإشارة إليه خاطئة وأنا أقرأ صفحاته باحثاً عن هذا الموضوع ، إذ كنت، نسيت ^(١) الورقة التي دوّنت بها رقم الصفحتين وقبل نهايته وحين أوشكت أن أطويه وجدت هاتين الصفحتين كأنهما غريبتان عن الكتاب .

أثر عظيم عن النبي

أحسبني قدمت إليك ما يدحض عن القوم عموم أمة القراءة والكتابة وأحسبك رأيت صورة مخالفة لما يدعى أولئك الناس ، وذلك من خلال ما بين يديك عن طريق العلم الحديث وعن طريق الأدلة الدامغة بعيداً عن الظن والهوى .

وأختمت هذا الموضوع بأثر عظيم عن النبي ﷺ من كتاب (تقييد العلم) ، يقول الخطيب البغدادي في القسم الثالث من إباحة الكتابة : عن أبي هريرة قال : إن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ قلة حفظه ، فقال له النبي ﷺ : عليك يمينك ، (أى استعن بيمينك في الكتابة) .

وفى الباب الثالث فى ذكر ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : قيدوا العلم بالكتابة ، وروى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : قلت يا رسول الله أأقيد العلم ، قال الرسول ﷺ : نعم ، قلت : وما تقييده ، قال : الكتابة . وفى الباب الرابع استشهد بالقرآن : (لا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله) ، وفى الباب الخامس يقول الخطيب : عن رافع : قلنا يا رسول الله إننا نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال النبي ﷺ : اكتبوا ولا حرج ، وفى الباب السادس يأتى الخطيب برواية أخرى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : قلت يا رسول الله إنى أسمع منك شيئاً فأكتبه ، قال الرسول : نعم .

ولعل هذا هو سبب اتخاذ عبد الله بن عمرو لصحيفته (الصادقة) ، وفى الباب التاسع يذكر الخطيب أن رجلاً يدعى أبا شاة لما سمع خطبة النبي ﷺ بعد فتح مكة قال : اكتبها لى يا رسول الله ، فقال الرسول : اكتبوا لأبى شاة .

وفى (الطبقات الكبرى) يقول ابن سعد ^(٢) : عن ابن عباس قال : اشتكى النبي يوم الخميس ، فجعل ابن عباس ييكى ويقول : يوم الخميس وما يوم الخميس ، اشتد بالنبي وجعه فقال : ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً .

ثم رواه عن على بن أبى طالب أنه قال : كنا عند النبي لما ثقل فقال يا على ائتنى بطبق أكتب فيه

(١) كنت وقتلت مستعيراً إياه من دار الكتب .

(٢) أحسبك تتنبه أنه لم يرو عن ابن عباس مباشرة إنما بعد عنونة طويلة ، وورد هذا فى (ذكر مرض النبي ووفاته) .

ما لا تضل به أمتي بعدى .

كذلك رواه عن عمر بن الخطاب أنه قال : كنا عند النبي وبيننا وبين النساء حجاب فقال النبي غسلوني بسبع قرب وأتوني بصحيفة ودواة أكتب كتاباً لن تضلوا بعده أبداً .

وفى موضع آخر ^(١) قال عن السيدة عائشة أنها قالت : لما ثقل رسول الله دعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : ائتنى بكتف حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه .

وعنها أيضاً أنها قالت : إن رسول الله قال : ادعى أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً فإننى أخاف أن يقول قائل ويتمنى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ●

أحمد الأحمدين

ديسمبر ١٩٩٧م

(١) فى (ذكر إسلام أبى بكر ووفاته) .

المراجع والمصادر

- (١) أساس البلاغة . لجاد الله محمود بن عمر الزمخشري . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مركز تحقيق التراث .
- (٢) أدب الكتاب . لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، تحقيق محمد بهجة الأثرى . مراجعة محمود شكرى الألوسى . المطبعة السلفية . القاهرة .
- (٣) الأمالى . لأبى على القالى . دار الكتب المصرية .
- (٤) الأدب الجاهلى . طه حسين . دار المعارف المصرية .
- (٥) البداية والنهاية . لأبى الفداء حافظ بن كثير . تحقيق أحمد عبد الوهاب الفتى . دار الحديث . القاهرة .
- (٦) البلدان . لابن فقيه . دار الكتب المصرية .
- (٧) البيان والتبيين . لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون . دار الجليل . بيروت .
- (٨) تاريخ العرب قبل الإسلام . جواد على . مطبوعات المجمع العلمى العراقى .
- (٩) تاريخ الطبرى . لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف المصرية .
- (١٠) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين . فليب حتى ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافى ، ومراجعة جبرائيل جبورة . دار الثقافة . بيروت .
- (١١) تاريخ ابن خلدون . لعبد الرحمن بن خلدون . دار الكتب المصرية .
- (١٢) تاريخ الخط العربى . محمد فخر الدين بك . دار الكتب المصرية .
- (١٣) التنبيه والإشراف . لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى . لندن . مطبعة بريل .
- (١٤) تفسير الطبرى . لأبى جعفر محمد بن أحمد الطبرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (١٥) تفسير القرطبى . لأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (١٦) تلقيد العلم . للخطيب البغدادى . تحقيق يوسف العشى . طبعة دمشق .
- (١٧) جمهرة نسب قرىش . للزبير بن بكار . حققه محمود محمد شاكر . دار الكتب المصرية .
- (١٨) جمهرة النسب . لابن الكلبي . رواية عن سعيد السكرى . حققه وأكمل نسقه عبد الستار أحمد فراج . التراث العربى . سلسلة تصدرها وزارة الإعلام الكويتية .
- (١٩) الحيرة . تأليف يوسف رزق الله غنيمه . مطبعة المعارف . بغداد .
- (٢٠) حياة محمد . محمد حسين هيكل . دار المعارف المصرية .
- (٢١) ديوان الأعمش . تحقيق كامل سليمان . دار الكتاب اللبنانى .
- (٢٢) ديوان امرئ القيس . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف المصرية .
- (٢٣) ديوان النابغة الذبباني . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف المصرية .

- (٢٤) ديوان طرفة بن العبد . شرح الأعلام الشتتمرى . تحقيق درية الخطيب ولطفى الصقال . مطبوعات مجمع اللغة العربية . دمشق .
- (٢٥) ديوان حسان بن ثابت . تحقيق سيد حنفى . مراجعة حسن كامل الصيرفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (٢٦) ديوان زهير بن أبى سلمى . المكتبة الثقافية . بيروت .
- (٢٧) ديوان الخطبة . بشرح ابن السكيت والسكرى . تحقيق نعمان أمين . دار الكتب المصرية .
- (٢٨) الروض الأنف فى شرح السيرة . لعبد الرحمن السهلى ومعه السيرة لابن هشام . تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل . دار الكتب الحديثة . القاهرة .
- (٢٩) سيرة ابن هشام . لمحمد بن عبد الملك بن هشام . راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها محى الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة .
- (٣٠) شعراء النصرانية فى الجاهلية . جمعه ووقف على تصحيحه الأب لويس شيخو اليسوعى . مكتبة الآداب . القاهرة .
- (٣١) الاشتقاق . لابن دريد . دار الكتب المصرية .
- (٣٢) صبح الأعشى . لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى . دار الكتب المصرية .
- (٣٣) الصاجى . لأبى الحسين أحمد بن فارس . المطبعة السلفية القاهرة .
- (٣٤) الأصمعيات . لأبى سعيد بن عبد الملك الأصمعى . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون . دار المعارف المصرية .
- (٣٥) الطبقات الكبرى . لمحمد بن سعد . دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت .
- (٣٦) طبقات فحول الشعراء . لمحمد بن سلام . شرح محمود محمد شاكر . دار المعارف المصرية .
- (٣٧) طبقات الأمم . لأحمد بن صاعد الأندلسى . وضع المقدمة محمد بحر العلوم . المكتبة الحيدرية . النجف .
- (٣٨) العقد الفريد . لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه . شرحه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهرسه: أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبيارى . مطبعة التأليف والنشر . القاهرة .
- (٣٩) الأغانى . لأبى الفرج الأصبهاني . طبعة بولاق . طبعة سامى .
- (٤٠) المغازى . للواقدى . دار الكتب المصرية .
- (٤١) فتوح البلدان . لأبى العباس أحمد بن يحيى البلاذرى . مطبعة الموسوعات . القاهرة .
- (٤٢) الفائق . لجاد الله محمود بن عمر الزمخشري . ضبطه وعلق عليه على محمد البجادى ومحمد أبو الفضل إبراهيم . دار الكتب المصرية .
- (٤٣) فجر الإسلام . أحمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مكتبة الأسرة .
- (٤٤) الانتصاب . للبطليموس . تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (٤٥) قصة الكتابة العربية . إبراهيم جمعه . دار المعارف المصرية .
- (٤٦) الكامل فى التاريخ . لأبى الحسن على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير . صححه الشيخ عبد الوهاب النجار . المطبعة المنيرية . مصر .

- (٤٧) مختار الشعر الجاهلي . مصطفى السقا . دار الكتب المصرية .
- (٤٨) مصادر الشعر الجاهلي . ناصر الدين الأسد . دار المعارف المصرية .
- (٤٩) مقدمة ابن خلدون . عبد الرحمن بن خلدون . دار الكتب العلمية . بيروت .
- (٥٠) المملكات السبع الطوال بشرح الأثباري . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف المصرية .
- (٥١) المفضليات . للمفضل النبی . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر عبد السلام هارون . دار المعارف المصرية .
- (٥٢) المنهل الصافي فی العروض والقوافی . محمد سليم الجندی . طبعة دمشق .
- (٥٣) المحبر . لابن حبيب . دار الكتب المصرية .
- (٥٤) معجم ما استعجم . لأبي عبيد الأنديلسی . تحقيق مصطفى السقا . دار الكتب المصرية .
- (٥٥) النصرانية وأدائها بين حرب الجاهلية . للأب لويس شيخو اليسوعي . مطبعة الآباء اليسوعيين . بيروت .
- (٥٦) النابغة الذبياني . محمد سليم الجندی . طبعة دمشق .
- (٥٧) الورق والورقة فی الحضارة الإسلامية . محمد طه الحاجري . مطبوعات المجمع العلمي العراقي .
- (٥٨) الوزراء والكتاب . لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري . حققه ووضع لهارسه مصطفى السقا ، إبراهيم الأثيري ، عبد الحفيظ شليبي . مطبعة الحلبي . القاهرة .

استعنت بفالب هذه المراجع والمصادر من دار الكتب فلهم جزيل الشكر

الفهرس

٥ مقدمة
٧ (١) المملكتان العظيمنتان
١٣ (٢) وقفة على النقوش القديمة
١٧ (٣) الحيرة وغسان وأثرهما التعليمي وملحق به ذكر مدينة الأنبار
٣٥ (٤) مكة والخط النبطي العربي
٥٣ (٥) جملة ما كتبه النبي (ص)
٦١ (٦) ما حواه القرآن من ذكر القراءة والكتابة
٧٥ (٧) غالب ما تكتب به الصحابة
٨٠ (٨) خاصية المكاتيب
٩٠ (٩) القرآن وأميتهم
٩٣ (١٠) ما معرفة عموم عرب الجزيرة بالقراءة والكتابة
٩٩ (١١) تجاوز ابتدائية القراءة والكتابة
١٠٣ (١٢) من الأثر اليهودي إلى العروبة الخالصة
١٠٥ (١٣) متفرقات في وسائل رقى الكتابة
١١٤ (١٤) دعوة قديمة حديثة
١٢٢ (١٥) إحصاء البلاد ذرى وما أحصيته
١٤٨ المراجع والمصادر

قائمة الإصدارات

أسرار الجاسوسية ولعبة الجابرات	يوسف هلال	موسوعة تاريخ حضارات العالم	سميث . ترجمة : زينات الصباغ
الجماعات السياسية الإسلامية والجمع للدي المصري	د. أحمد حسين حسن	أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث	صلاح زكي
جماعات المصالح المصرية والسلطة السياسية	د. أحمد فارس	تاريخ العلم	د. عبد الحكيم بدران
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق	العلوم للجماهير	باربارا كاستيل . ترجمة د. عبد الحكيم بدران
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق	خيانة للتقنيين	د. عبد الحكيم بدران
كارتنة المعونة الأمريكية	جمال ل غيطاس	صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)	شعيب عبد الفتاح
قضية لوكربي وأحكام القانون الدولي	د. ميلود المهدي	الجات والتعبئة الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أزمة لوكربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكي	د. السيد عوض	حقيقة العرب	د. مصطفى عبد الغنى
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض	صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
نان أمريكيان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة باحثين	خمايا المستقبل إلى ابن محمي البشيرة وابن موفعنا	محمد الحديدي
حلايب .. نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محبوب	المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التنمية	عبد الله العقالي
الإخوان والعسكر	حيدر طه	العرب وإسرائيل .. موان الغنى ومستقبل للناهية	د. محمد عبد الشفيق عيسى
القوى الخارجية والأجالات الإقليمية في السودان	د. السيد فليفل	السلام الإسرائيلي (قراءة في المشروعات الإسرائيلية)	حسين معلوم
نظم الحكم العنصرية في جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل	السلام الفتاك	محمد خليفة
أيام المزع في الجزائر	خالد عمر بن قفه	أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
الإسلام والعرش	سيد زهران	السوق الشرق أوسطية (من مرنزل إلى براك)	إكرام عبد الرحيم
من يحمي عروش الخليج (التمط والتعبئة)	د. أحمد ثابت	التبديل الإسرائيلي للعربية	سيد زهران
إعدام صحفي	سميد حبيب	مشروع للاندثار القومي	مصباح قطب
الكرامة الصالحة	حمادة إمام	في حنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح	الملف السري للسادات والتطبيع	شفيق أحمد على
عبد الناصر . هذا المواطن	سليمان الحكيم	مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد على
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم	عبادة الشيطان علي ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
عبد الناصر .. والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم	للماسونية	خليل إبراهيم حسونة
للرأة التي أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على	الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
عبد الناصر وعبد الخليم والزمن الخميل	حسن صابر	الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
البديل الناصري (قراءة في أوراق التنظيم الناصري)	سيد زهران	العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
أسرار وخفايا ثوار يوليو	محمد متولى	الاستيطان الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
عن الناصرية والناصريين (حوار مع د. الأناشي)	مجدي رياض	الإرهاب الأمريكي	خليل إبراهيم حسونة
الأقليات التاريخية في الوطن العربي	د. أحمد الصاوي	القدس	خليل إبراهيم حسونة
الناصرية والتاريخ	سيد حسان	حماس .. حركة للمقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
الناصرية .. الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران	يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
التنمية المستقلة في النموذج الناصري	جورج المصري	حلف الضحية والجلاد	ترجمة : زينات الصباغ
فلسطين الانتماسة .. جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت	التواطؤ الصهيوني النازي	بن هخت ترجمة : حمدي متولى
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد الزيات	غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبد القادر ياسين
الناصرية والتجديد	مجدي رياض	غزة أريحا - التسوية المستحيلة	جورج المصري
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصري	صفقة التسوية الأيديوية الإسرائيلية	د. السيد عوض
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري	أساطير الثورة	عاطف عبد الغنى
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الورداني	التناقض في تواريح وأحداث الثورة	محمد قاسم
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الورداني	بروتوكولات حكماء صهيون	
الكلمة والسيف	صالح الورداني	التمصود	
عبود الزمر . حوارات ووثائق	أحمد رجب	الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين
الله واحد في الإيجيل	ترجمة : عادل حامد	القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
للمسيحية والإسلام	حسين السيد	سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة : سيد حسان	عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الوحي في بداية التكوين	عبد العزيز محمد ، مصطفى الخولي	الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بلديوي
رسالة التوحيد للإمام محمد عمده	تحقيق د. محمد عمارة	احتراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق

الإسلام والعروبة	مجدي رياض	لا أحد يحبك	أمانى فهمى
الوطن وحقوق عبر المسلمين	محمد محمود عبد الله	ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب
كبهف تقرأ القرآن	محمد محمود عبد الله	مأساة أسرة	أمين العزب
كبهف تجود القرآن	محمد محمود عبد الله	دنا عتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال النيطانى
كبهف تحفظ القرآن	محمد محمود عبد الله	مطربة العرب	جمال النيطانى
الدربة الإسلامية	محمد محمود عبد الله	دموع إيزيس	حسنى لبيب
القرآن - حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبد الله	أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
قبس من دور الأسماء	محمد محمود عبد الله	الحب والتناز	خالد عمر بن ققه
الأحرف السبعة وأصول القراءات	محمد محمود عبد الله	يومية هروب	خيري عبد الجواد
صوموا تصحوا (الصيام والصحة)	محمد محمود عبد الله	مسالك الأحة	خيري عبد الجواد
الأيام المشاركة في القرآن والسنة	محمد محمود عبد الله	العاشق والعشوق	خيري عبد الجواد
علمني يا أبي (حوار حول رسالة الصلاة)	حسن سليمان	حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حروب المشايخ	أحمد الدسوقي	حرب بلاد بمنم	خيري عبد الجواد
أمن وحماية البيئة	خالد القاسمي / وجيه البعيني	حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
ما هي السجنما	صالح أبو سيف	التوهجات	خيري عبد الجواد
قصصا المونتاج المعاصر (حزبان)	د. عفت عبد العزيز	الطريق والعاصفة	رأفت سليم
الصوت والصوماء	د. مصطفى عبد المطلب	هي لهيب الشمس	رأفت سليم
المواد شبه المتصلة ودورها	د. مصطفى عبد المطلب	اركسوا دراجتكم	رجب سعد السيد
الأغشاش الطبية	د. موسى الخطيب	أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
الأهر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان	أنا ونورا وماعت	رفقي بدوي
المساجد الألفية في الإسلام	د. أحمد الصاوي	سيرة عزة الحسر	سعد الدين حسن
معالم هي تاريخ حصارة آسيا الوسطى	د. أحمد الصاوي	شجرة الخلد	سعد القرش
النفود الإسلامية في مصر	د. رأفت النبراوي	شهقة	سعيد بكر
كنشع المستور من قبائح ولأه الأمور (تراث)	د. أحمد الصاوي	حبس يا ناس	سليمان كابوه
رمضان .. زمان	د. أحمد الصاوي	أيام هند	سيد الوكيل
برلنتي والمشير (الفصة الحقيقية)	سيد زهران	للمنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
اعتراقات الأميرة جهان	ماجلي البسوني	أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الجنس والشباب الذكي	كولن ولسون ترجمة أحمد عمر شاهين	الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
جارة الجنس	جاري جوردون ترجمة زينات الصباغ	جسد في ظل	عبد النبی فرج
صناعة النجوم	سكوت أونيل ترجمة زينات الصباغ	المور للزمالك والنصر للأمل	عبد اللطيف زيدان
أشهر فصائح القرن العشرين	حسن صابر	ليس هناك ما يبهج	عبد خال
أسوأ حكام القرن العشرين	حسن صابر	لا أحد	عبد خال
جوم في الوحل	حسن صابر	صعدي صُح	د. عزة عزت
الأميرة العارية وعرش سيرا السمعة	حسن صابر	الشاعر والحرامى	عزت الحريري
رؤساء أمريكا في الوحل	حسن صابر	في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
أميرة علي قائمة الاغتيا	محمد رجب / حسن عبد الواحد	سرديب	عفاف السيد
أمريكا . الانهيار السياسي والأخلاقي	حسن عبد الواحد	إينارو	د. على فهمى خشيم
بنات إبليس (نساء في ملكة النشر)	حسن عبد الواحد	خواتم الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د. على فهمى خشيم
حسنة البوك ومعالى الوزير	أمامة الكرم	الزجاج للكسور	د . غريال وهبه
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	ينابيع الحزن والمسرة	لتحي سلامة
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين	بوميات عابر سديل	فيصل سليم التلاوى
الثلاثية الروائية	د. أحمد إبراهيم الفقيه	وتر مسندود	قاسم مسعد عليوة
حذاء السيد المنسى	أشرف الموضى	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
نباتح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	حب وظلال	كوثر عبد الدايم
رققه الأحلام الملحية	إدوار الخراط	ترانزيت	ليلى الشريبنى
مخلوقات الأشواق الطائفة	إدوار الخراط	مشوار	ليلى الشريبنى
عندما تبصص الديوك	أمجد صابر	الرجل	ليلى الشريبنى

رجال عرفتهم	ليلى الشرييني	امصب قل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الحلم	ليلى الشرييني	الغربة والعشق	مجدى رياض
النغم	ليلى الشرييني	مشاعر همجية	محسن عامر
عريس لبنت السلطان	محفوظ عبد الرحمن	غربة الصباح	محمد الفارس
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشراوى	ونس	محمد الحسينى
كوميديا الانسجام	محمد بركة	ليالي العنقاء	محمد محسن
الخرابة ٢٠٠٠	محمد صفوت	العجوز المراوغ يبيع أطراف الدهر	نادر ناشد
إلحاح	محمد عبد السلام العمرى	هذه الروح لى	نادر ناشد
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى	هذه الليلة الطويلة	د. أحمد صدقي الدجاني
لوحة متنوعة	محمد علي سعد	الدمية والدم	أنور عبد المغيث
المروج إلى السبع	محمد قطب	محرقة ساهونا رولا	ميلاد حكيم
رثفات من ههوتي الساخنة	محمد محي الدين	اللغة الأدبية .. مسرحية شعرية	محمد الفارس
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش	مكة القروى	محمود عبد الحافظ
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش	هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الهروب مع الوطن	عماد القديري	خدييات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
فوق لهيب الشموع	عماد القديري	حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
ثلاث حقايب للسفر	منى برنس	حقول الرماد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
دم الأنوس	ناجي الشكري	أثر النفاقة العربية في الأدب الأسباني	د. أحمد أبو حمد
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد	نظريات التلقى وتقبل الخطاب وما بعد الحداثة	د. أحمد أبو حمد
الحضور في غياب اللؤلؤ	نهلة السوسو	الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
ديسمبر الدافئ	هدى جاد	عبد الله السدوني .. حياته وشعره	د. أحمد عبد الحميد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة	قراءة المعانى في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
فرد حمام	يوسف فاخوري	صد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
رويدا بأفاه الأرض	إبراهيم زولى	مغامر حتى النهاية	إدوار الخراط
فصادد حب من العراق (البجاني وآخون)	إعداد : بثينة الناصري	مسالك الرؤى (قراءة في أعمال حبري عبد الجواد)	إدوار الخراط
بدلاً من الصمت	درويش الأسوطى	اللغة والشكل	أمجد ريان
من فصول الزمزم الرديء	درويش الأسوطى	للتقمعون العرب والتراث	جورج طرابيشي
تماماً إلى حوار جنة بونسكو	رشيد الغمري	ثقافة البادية	حاتم عبد الهادي
كانها نهاية الأرض	رفعت سلام	للثقل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
نصبح علي خير	سمعتي الساموني	أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
الألوان ترتد بشارهه	شريف الشافعي	العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة
صلاة المودع	صبرى السيد	أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
ديا تنادينا	طارق الزباد	مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
تلف	ظبية خميس	البعد الغائب ، نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة	ظبية خميس	رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى	البواكير في القصة القصيرة	شوقي عبد الحميد
حواديت لفندي	عصام خميس	الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة الرثة	د. صلاح الراوى
سيرة للاء	د . علاء عبد الهادي	رحلة الكلمات	د . على فهمي خشيم
رانب الألفه	علوان مهدي الجيلاني	بحثاً عن قرون العربي	د . على فهمي خشيم
إضاءة في خيمة الليل	علي فريد	أعلام في الأدب العللى	علي عبد الفتاح
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن	هيمجنواي .. حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
عطر النغم الأخضر	عمر غراب	زمن الرواية ، صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
سراب القمر	فاروق خلف	في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
إشارات صبط المكان	فاروق خلف	أبو رجل مسلوحة	محمد مستجاب
أحوال الفتى الطائر	فاروق خلف	أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	عماد القديري
بيت من بالبرارى	فاروق خلف	مقالات في الحياة والأدب	عماد القديري
أوراق مسافر	فصيل سليم التلاوى	الرواية العربية ، رسوم وقراءات	نبيل سليمان

الوقوف على الأُمَمِ عند عرب الجاهلية

